محمد قطب

الطرف الآخر من البيت

رواية

الكتاب: الطرف الآخر من البيت (رواية)

الكاتب: محمد قطب

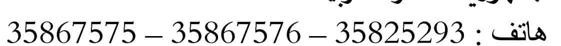
الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد

الطرف الآخر من البيت – رواية / محمد قطب – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **4 – 261 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **22840 /**

الطرف الآخر من البيت



إهداء

إلى زوجتي..

عشرة العمر الجميل..

يواجهك البهو الضيق بأثاثه القديم فلا تقوى على منع زخم قابض يتسلل كالرذاذ الباهت.. تأخذك صورة الرجـــل في صدر البهو فتندهش للرأس الملســـاء، والعـــين الوامضـــة. وتحدق في اللوحة المعلقة فتقع عيناك على مدى بـــين الـــبر والبحر يحوي قارباً صغيراً، ورجلاً يوه الدفة ويشد الحبـــال ويعجز عن السيطرة، ويظل يرنو إلى وجه مســـتور بغيمـــة معتمة يلوح ويغيب.. وسط زبد يعلو وعاصفة تهب.

وحين.. تتحسس بنظراتك الطلاء ولونه الرمادي المجعد تحس فجـــأة برجفة تهزك وأنت ترى الوجه المثلث محروساً بشعر يتهدل على الكتـــف والصدر، وتخاله ينفلت ليغمر الحائط ويسيل فوقه.

تغيظك دقات ساعة الحائط بطرازها القديم وهي تصدر صوتا له رنين ناعب يقبض على القلب.

وتجلس وأنت تسأل نفسك ما كل هذا الصمت؟

فجأة ينشق الصمت عن سيدة ترتدي ثوبا فضفاضا، ويعكس وجهها أثرا لبسمة لم تكتمل وتسأل:

– حضرتك تشرب إيه.

يتقدم الرجل في انحناءة خفيفة ويقبل عليك في ود واضح، تعكـــس لمعة رأسه ضوءا يتساقط من «لمبة نيون». لا تخفي عليك درجة الاحتفـــاء بك، يضغط على كفك في امتنان وكأنك أسرته بجميل، وتبتسم وأنـــت

تراه يبحث عن كلمة مناسبة تخرجه من حرج يشعر به وهـــو يرمقـــك خلسة وعيناه تقفان على شفتيك..

– أيامنا.. لم نسمع عن الدروس الخصوصية.

ترنو إليه وأصابعك تمسح زجاج الطاولة.

– كانت المدرسة عامرة بأنشطة لا حدود لها..

تصطاد تهويمة مباغتة فتسرع قائلاً:

– الآن لا مكان لفناء ولا وجد لنشاط..

تنفلت النغمات التصويرية من تمثيلية السهرة فتتخيل مشهداً يرجف القلب، ويستدعي صمتاً ثقيلاً.

– كنا نتناول غداءنا الساخن في مطعم المدرسة.

تراه يرتب ياقة ثوبة الأبيض الناصع ويرنو إليك، تســـارع فتتقـــي بقولك نظرة مزاحمة.

– تمتلئ الفصول بالطلاب، ولا مجال لتقديم خدمة..

وتفرش أصابعك على سطح الزجاج البارد.

– الشوارع تقوم بذلك.

يمس شاربه مساً خفيفاً.

– كنا نخاف أن يرانا المدرس نلعب في الشارع.

رسم بسمة خافتة على شفتيك.

– الآن يصادق المدرس التلميذ طمعاً فيه أو خوفاً منه.

ارتدت الروب المنزلي، وأرسلت شعرها، ومست وجهها بطلاء بـــدا على الشفتين بلون الورد، وضعت صينية الشاي وقطعتين من الحلـــوى.. وعادت. فرد منشفة صغيرة، والتقط شوكة ونظر إليك، تناولت الشوكة وازدرت قطعة صغيرة من الكنافة.

وقبل أن تنهي رشفتك الأخيرة تراه يتململ، وتعبث يده بـــالكوب كأنما يتأهب لإلقاء حمل يقله، وينفرج الفم قليلاً ويقول..

– تمدحك البنات.. ربما لصغر سنك.

لا يخطئك المعنى ولا الومضة المطلة من العين التي تأخذك إلى الصورة فوق الحائط ولا الارتباك الطارئ الذي لون ملامحه، ولا اليد التي راحت تعبث بأزرة الثوب كأنما تعدها. رنا خلسة، ثم رفع رأسه وقال مسرعاً..

– يشهدن لك بالإخلاص.

وخرجت من صدره تنهيدة، كأنه يحمد الله على أن نجا من مأزق كاد يوقعه في حرج.

***

كأنما كانت تنتظرك خلف الباب، تتسمع خطواتك، وقبل أن تضغط على الجرس ينفتح الباب وتستقبلك، يهل الوجه في غيمتـــه، وتزاحمـــك رائحة الفل، تمد كفها وتقبض على يدك.. وتـــدلف بـــك، يواجهـــك السكون، والضوء الخافت، والرأس الملساء، والقارب المهتـــز. يعتريـــك شعور غريب يتسلل إليك.. البساطة، والهدوء، والذوق، تقف بك على عتبة جديدة، وأنت المغترب عن بيئتك الريفية يعزلك الحيـــاء ويغـــزوك الخجل.. تشعر بأمان وأنت تراها تبثك هوى ضنيناً تدركه فتلوذ بقلبك تستهديه، وتستدعي أحاديث تدور حولك..

– أستاذ حين يشرح النص.

ترسل البنت نظرهّا نحوك وهمس زاعقة.

– ويكشف حب الشعراء.

تضغط البنت صدرها بكتاب الأضواء..

– ويفتح قلوب الملهمات.

لم يفتك تعليق البنت النحيلة الصفراء.

– عينوه ليعلمنا.. الحب..

وحين تلفت فجأة انفردت ملامحها وأسرعت قائلة..

– حب الكتب.. الكتب.

وتراها تزاحمهن بغيمتها المعشبة، وتكاد ترفع الصوت لتسمعه.

- إنه يصطاد العقل..

وتضحك، وهي همس لزميلاهما رانية إليك كأهما تخترقك.

- لا يصيده سوى العقل..

وحين نهضت وأطللت عليهن، تفرقن صاخبات.

أما هي فقد وقفت زائغة العين، ومبهورة، ترفع شعرها المنسدل وترمي به خلف الكتف فيبدو الصدر في زيه المدرسي فسيحاً. تضغط بالكتاب فيلتوى قلبك، وتدير رأسك وتلتقط نظرة من زميل كأنها التأنيب، فتدفع أمامك بالكراسات وتخرج القلم الأحمر وتروح تجري به تحت الكلمات دون أن تعي منها شيئاً.

ما الذي يجعل البنت تتجرأ.. وتقتحم.. وأنت بخجلك يأكلك القلق فتدفن رأسك بين الصفحات.. ولا ترفعها إلا حين يأتيك الصوت حيياً وجسوراً.

- أستاذ.

وتخترقك العين، وتلوم نفسك لضعفك، وأنت المشهود لك بالحسم والبعد عن المواقف المربكة.

- احتاج إلى درس خاص.

وانتظرت.. لكنك رحت في صمتك تتدثر به.

وراحت هي تتحدث عن عجزها في فهم قواعد اللغة العربية وتركيباتها واستخراج المطلوب من التدريبات النحوية الجافة، وأنها تخجل حين تخطئ في الإجابة.

وتخشى من سخرية البنات.. وتخاف أن تتعقد من اللغة فترسب.

اعتقدت أن شرحك المستفيض كفيل بالفهم، وجاء ترددك على البيوت نادراً، والرغبة في الدرس الخاص تكاد تنعدم..

لكن البنات يحتلن أحياناً وينجحن..

ألحت كثيرا حتى قبلت، خفت أن يثير ترددها على المكتب حديثا أنت في غنى عنه.. فقبلت. هيفاء تكاد تتقصف، يميزها هذا الشعر الأسود الطويل، المفرود كالسبائك، وإن أردت عدة فعلت.

***

تهل عليك فرحة، تمكث معك الساعة المحددة ولا تكف عن المرح. وأنت تسأل نفسك.. ما كل هذه الفرحة. وتغمس ألمك في قلبك وتعجز عن حصر لحظات فرحك الشحيح، تضج بسمتها الزاعقة فتجرح الصمت، حتى تخشى أن يطل عليها والدها.

ترتاح في جلستها، وتحدق في الكتاب، تصطاد نظرة قلقة، ويـــداري صفحتي الوجه شعر يفيض على الصدر ويلامس الكتاب، تنثر شـــعرها، وتضع ساقا على الأخرى وتنحي الكتاب.

– ما كل هذا الضعف!

وأنت تقرأ النص الشعري الذي يفيض بالعاطفة تلمح رفـــة العـــين وتتغاضى عن انطباقة الجفن، ويعلو صوتك لعلك تخرجها من تهويمة تلازم الشاعر وهو يصف الحب ولظاه...

وتفك الجفن حين يتمادى وصف المعاناة، وتراه يتذلل فتنظر إليه في إمعان، وتبتسم، وتتعجب من ضعف المحب، وتعترض على «أبي فراس»، وتراه ضعيفاً وهشاً، تشك في فروسيته.. وتحتد.. ما كل هذا الضعف.

وتطل أمها برأسها في سكون كأنما تخشى أن تخدش الصمت الـــذي يشمل البيت، وترنو إليك خفية وكأنها تعتذر، تضع صينية الشاي وطبق الحلوى وترمق ابنتها ثم تشد قامتها وتمضي، تنهض البنت مسرعة وتلتقط براد الشاي وتصب الماء في الكوب، وتضع السكر، وتذيبـــه بالملعقـــة.. وتقدمه لك..

– اشرب الشاي من يدي..

– إنه من صنع ماما..

وتنفرج الشفتان قليلاً فتتهيأ البسمة، وتظل تحمل لها صورة لا تنسى عن بسمتها المدورة.. يترطب الوجه بألق الثغر اللامع، وتنتشي الوجنة وتتورد، ويخفق الصدر فيكشف عن مستوره. تتأود وهي تجلس مازحة.

– يكفي أنني صببته بيدي.

وتضج زاعقة، وتنسى أنها تلميذة لك، وتنهض فاتحة راحتيها فتتخيل أنها تقبل عليك وتدعوك، ويستتر الوجه بالشعر الفاحم، تسرع فتلمه وتدفع به خلف الكتف فيسفر وضيئاً، ثم تلتزم مقعدها ريانة، ترمقك كأنها تناديك وأنت لا تملك إلا أن تعلق في رجفة ضاحكة.

– ويكفيني.. أن أشربه..

وقبل أن تنهي الرشفة الأخيرة أخبرتك أن صديقة لها ستشاركها الدرس..

وافقت على مضض، وأدركت أن أمور القلب على ما تعودها.. كنت قد استرحت لها، وخشيت أن تفقد اللحظات الجميلة وهي تتجلى بسيطة كالفطرة. نحيت آسفاً طارئاً كاد يقبض على عينيك، لكنها رمقتك وابتسمت.

– هي الأخرى تلميذتك..

***

أثناء الدرس كانتا تخطفان الروح منك، وأنت تستغرق في مهمتك لم تفتك مباراة الأناقة، وانفرجات الفم، وتطاير البسمة ونمنمات الخدود..

حين أنهيت درسك صاحبتك تلميذتك ونزلت صامتاً.. وأنت تستقبل الشارع بسكونه البادي ونوره الخافت، حذرتها من التأخير، ومن مشاغبات الطريق.. حدقت فيك والتزمت صمتا قلقا، كانت خطواتها تردد في تمهل- صدى رتيبا يجسمه ضيق الطريق وطوله الممتد.. وكان جسدها المكتنز لا تبين اهتزازاته ولا حركته الجسور. أوقفتك فجأة وشدتك من يدك وانتحت جانبا، ورنت في ارتباك إليك، بدلت ساقيها وهي تردد.

- وأنت .. كن حريصاً.. وتنبه.

ضحكت وقلق وأصابع يدك تقبض على منديلك الأبيض.

- هيا.. أوصلك.

كان جسدها القصير يطول ويقصر على أنوار الشارع.. وأنت ترمق وجهها، بدت شفتاها كأنها تجاهدان شيئا، يكاد ينفلت.. سهلت الأمر فحدثتها عن أسرتها بعد وفاة الأم، وعن إخوتها الصغار، ووالدها المتعب وأهمية أن تتخطى الظروف الجديدة...

نظرت إليك في تمعن ولم تغمض..

- أيعجبك ما تفعله صديقتي؟

هززت رأسك وكأن الأمر لا يعنيك.

- إنها تسعى إليك.. كأنك لا تفهم.

تغاضبت عن لهجتها وأخذك عجب من الحديث.

- لا تنسى أنها تلميذتي..

جاءتها رجفة كأنها واقعة تحت وطأة انفعال قوي.

- إنها تريد أن تأخذك كلك.

- تأخذني كلي!!

وتعجبت من التعبير، وجاءك شعور غامض بحسيته.. لكنك نحيت المعنى، ورفعت رأسك فبدت بجانبك ضئيلة. وحل صمت خدشته الخطوات ولفته حركة الظل في امتداداه وتلاشيه. ضحكت – كالقهقهة– وأنت تنفي نيتك في الزواج.

- أرجوك لا.

- دع..

أربكك القول، واعتبرت الحديث خوضاً لا يجب التمادي فيه، فأوقفتها. أشاحت بوجهها الأبيض المستدير ومسحت صدرها بكفها.

- إنني على ديانة أخرى ولا غرض لي فيك..

وغضبت حين لمحت فيك استهانة بما تقول.. ولاحت ملامح الوجه تتقلص حتى خشيت عليها.. ورحت تتساءل على السبب وراء الحديث عن صديقتها التي لا تكاد تفارقها..

– كأنك لا تفهم كلامي.

مسحت الوجه والجسد كأنما تودعك.. هكذا.. داهمك الإحساس، وانفلتت مهرولة.. عكست الحركة اضطرابا. فظللت تمشي وراءها كي تطمئن عليها حتى لمحتها تدلف إلى عربة عامة.

توجست خوفا بدا يتسرب إلى نفسك.. وأنت بطبعك متوجس. تبتعد عن التجربة حرصا على اطمئنان نفسي تبتغيه حتى شحبت تجاربك ولم تترك أثرا عليك، ولم تشكل عمقا في نضجك وكأنك تعيش على هامش يوقعك في مطبات لا تقوى على الخروج منها.. لأنك وقتها تكون قد التزمت، ويأخذك الحياء فلا تقوى على الفكاك مما التزمت.

ظللت تستعيد الحديث على مدى زمن طويل، وهي تواجهك في صمتها بعد أن اقتحمتك وأخذتك كلك. وظللت تسأل نفسك لماذا لم ترها مرة أخرى منذ هذا اللقاء مع أنهما دائمتا الاتصال.

هل ما تزال تذكر ما قالته يوماً، وتخشى أن تتكأ الخبيء؟..

أغراك السكون، وغيمة الشعر المنسدل، وطيبة الرجل، ووحدتك القاسية، فأعلنت رغبتك.. كادت تنهض لتحتويك لولا نظرة الأب وضحكة الأم الزاعقة وقول العم.

– لمي فرحتك يا حلوة..

ازدهي جسدها بالفرح حتى كدت ترى رجفته الداخلية تطل عليك، وفاح الفم بعبير ألق من لغة القلوب، وناب حياء الأنثى عن الدور الطبيعي، فحمدت الله أن اختار لك الطبع الذي يلائمك. وحين سكنت الروح راحت تحلم بما تحبه الأنثى.. المسكن الأنيق، والهندام الجميل، والذهب الرنان.. وكنت بجيدتك عاجزاً عن استثمار عملك، واتجهت إلى الله أن يجعل لك مخرجا فخرت مع من خرج طلبا للرزق.

***

يتنامي الهاجس داخله وهو يتابع حركة المطار وتدافع البشر. يشعر بهزة ترجفه وهو يرى إجراءات الوصول. يأخذه الحنين.. ويسأل نفسه. أيقدر على المواجهة؟ وهل يستطيع أن يكيف الجديد حسبما يحب؟ وينحي قليلاً حياءه الذي يعزله في مسكنه المتروي البعيد..

لم يقو على إزاحة الوجه وهو يخترق القلب.. فرهن من أجله مشاعره، وارتحل.

يستقبله مطار جدة في حيدة وبردو..

امتدت الأيادي تلتقط الحقائب.. وتتوالى إجراءات المراقبة والجوازات.. وتنفتح البوابات وتعلو صيحات هنا وهناك.. وأصوات النداء على الأهل والأصدقاء تنعش الأفئدة...

يتلفت حواليه ويده قابضة على جواز سفره، والأبدان تتصادم حتى يكاد يسقط.. ويتساءل في عجب عما يدفعهم إلى كل هذه السرعة.. وبكل هذه الهمة..

لم ينجح في إقامة علاقة عابرة مع المسافرين معه.. بدوا له معتادين على الترحال.. فندم وازداد توحده..

أنهى الإجراءات.. وراح يبحث عن حقيبته في المكان الخطأ. ولما طال وقوفه خشي أن يلفت العين إليه فاستمات بحثا حتى وجدها مركونة عند نهاية الممر.. التقطها وهرول في حذر كي يلحق بآخر المغادرين، وقبض على الجواز.. ومضى.

كان وهو ينهي أموره قد لاحظ صفين من القادمين.. أحدهما خاص بالأجانب والآخر مخصص لمواطني البلد.. الذين غادروا المكان في سرعة واضحة.. خشي أن ينسحب ما رآه على حياته وإقامته توجسا ، وانقبض قلبه.

استقبله فضاء رحب، وصحراء مصفرة مترامية، وهواء لزج مشبع ببخار البحر يحمل بين ذراته سخونة شعر بها وهي تلج إلى مسامة وتلوي صدره.. احتار أين يذهب؟ الأوراق التي معه محددة الجهة. عليه أن يذهب إلى إدارة التعليم بجدة لينهي معاملاته، ويأخذ معه خطاب التوجيه..

كان قد لمح زميلا له صاحبه في الرحلة، وقابله أثناء التعاقد بمصــــر. وتعارفا، فلسطيني يعمل مدرساً لمادة المحاسبة.. ظل يســـرع، ويتخطــى حواجز صغيرة، ويحرص على أن يبدو في مجال الرؤية، حتى إذا تأكـــد أن زميله قد رآه.. خفف من حركته. وشعر براحة حقيقية وهـــو يبصـــره قادماً.. استعاد بعضا من وعيه الغائب، وطوى– في قوة– حنينه الـــذي يجذب معه حالة استدماع العين..

***

الآن تشعر أن عمرك ينقضي في مقايضة محزنة، وأن أيام شبابك تكاد تبيعها في مقابل حفنة من المال، تساعدك على الزواج وتجهيز المســـكن.. تلهث كالمذعور، وقلبك على حافة عينيك.. ويحتويك الوهن، ويكـــوي القلق جسدك وتكاد تحس بمفرداته تفلت منك..

سأله وهو يراه غائماً وذاهلاً:

– تنتظر أحداً.

آنس فيه قدرة على المواجهة.. تعود الأمر كأنه العـــادة، ســـفراته متعددة وأقاربه، وأصدقائه يعملون في كل البلاد العربية. وهو.. لا يعدم صديقاً أو قريباً.. إن طلبه..

طوى ألمه ولملم وعيه وتمتم..

– لا أحد لي هنا

قال في همة وحسم..

– إذن هيا بنا..

حمل حقيبته ومضى، فحمل حقيبته ومضى أيضاً، اختــرق الطريــق الطولي إلى برحة واسعة.. فهرول وراءه مسرعاً.. توقف عنــد موقــف صغير لعربات الأجرة. وشد قامته ونطق.

– فندق الحرمين.

طوح السائق بشاله الأبيض، وستر فمه ورقبته، ونفذت عيناه فيهما وهو يقول..

– ريالان.

تلفت تجاهه وحدق فيه كأنما يقيس رد فعله وهو صــامت ينتظــر.. نطق زميله وهو يرنو إليه ويبتسم.

– هيا بنا.

أسرع السائق، وأحدث صوتا زاعقا رجه وأقلقه.. وانطلق بهمــا.. طوى الصحراء، وتجاوز الرمال الصفراء المنداة، سار يمينــا، واختــرق المسافة ذات المدق الحجري، وتقاطع مع درب ضيق مغضن الوجــه.. ثم استدار في إمالة مباغتة، فرأى البحر عن يمينه، وشارع الكورنيش القديم يتبدى مبلولاً.. والبحر راقد على الحافة، وموه ساكن هــادئ إلا مــن موجة منفلتة ترسل زخاتها ورطوبتها الناشعة..

اخترق شوارع ودروباً، وأسوقة صغيرة، وانحرف يساراً ووقف أمام مبنى قديم يواثم طابع الشارع في مبانيه الواطئة، وطرزه العتيقة..

نزلا الدرج، وتقدما إلى موظف الاستقبال.. أنهيا المطلوب وعـــرف كلاهما غرفته.

***

انزاح حمل ضاغط من فوق صدره وهو يتمـــدد علـــى الســـرير.. عضلاته تكاد تتفكك.. وعيناه تطوفان بالغرفة وتقفان عند مروحة باليـــة يعلوها تراب أسود. زاحمه الوجه في غيمته الليلية، وأطلت العين غائمـــة كأنما تعاتبه.

فز مدهوشاً وهو يقبض عليه، لا يفلته، فر كما يفر الزمن ويتسرب الفرح.. أرخى وجهه بين كفيه وتنهد عميقاً.

ازدحمت أيامه الأخيرة قبل السفر. قرر أن يزور الأهـــل ويطمـــئن عليهم. لم يرهم منذ فترة، كان اللقاء حارا، انتفضت له القلوب ودمعت له العيون.. حين علم والده بسفرته إلى البلاد المقدسة رفع رأسه ورنا إليه بوجهه كله.. كأنما يستدعي تاريخه معه.

لاح وجهه الأبيض محمرا فأدرك أن ضغطه مرتفع وأنه لا يداوم على تعاطي الدواء.

تحتشد اللحظات بتاريخ طويل من المحبة المكتنزة في القلوب.. منذ وفاة أمه، وزواج أبيه.. وهو يلملم أطراف القلب ويسكب عطفه في حدود.. لعله يريد أن يدربه على الاعتماد على النفس، وخوض الحياة مفرداً.. لم يلاحظ عليه أن أخاه الصغير استأثر بحبه، وتدليله.. أو أقبل عليه في ضحكة زاعقة، لم يضحكها له حتى بات يتساءل: هل يمسك والده ميزانا يقيس به المشاعر فلا تميل كفة عن أخرى..! لكنه – دون أن يدري– كان يدفعه إلى العزلة شيئا فشيئاً. يعلم أنه لم يحجب عنه شيئا استطاعه، ولا حرمه من شيء قدر عليه ولو بمشقه. عاش كريما في حدود ما يعطيه.. وألزم نفسه بما هو ضروري..

يتذكر عتاب أبيه كثيراً.. من الذي أخبره أنه يدخن.. ربما تكون زوجته.

خشي أن يقلب الدنيا، لكنه كعادته قال عبارته الحاسمة.

– تعلم كيف نعاني لتتعلم. فلا ترهقنا بمطالب أخرى.

لم يكررها، ولم يصله أنه يدخن إلا بعد أن تخرج وعمل.

رنا إلى النافذة وأسدل الستارة بيده. لم تفلح المروحة في تدوير الهواء وتخفيف الرطوبة.. مسكت عينه هالة ضوئية فالتة.

مد يده وأشعل سيجارة.. تحلق الدخان في أفق الحجرة.

***

وضع يده فوق كتفه.. أسرع فلمس بباطن اليد أصابع اليد.. وظل يربت عليها ويردد في بسمة وادعة.

- لا تنس قراءة الفاتحة.. والدعاء في حجر إبراهيم..

جاءته زوجة أبيه بكوب الشاي وصوتها يضج.

- لا تنسني في مسجد الرسول.. قل له إن سنية تسلم عليه.. وتنتظر بشارته.

ابتسم الوالد، فبدت ثنيتاه منفرجتين، وازداد بهاءً وضحك ضحكة وادعة تشي بأن مزاحه رائق.. وإن صاحبتها سعلة مباغتة.

- قل له.. لا يسمع كلامها..

لوت وجهها وأحكمت طرحتها السمراء وقالت معاتبة.

- أنت هكذا.. لا تريد لي الخير..

***

غامت عينك والبنت ذات الوجه المستكن في غيمته تأخذك في قلبها وتدفئك، وتحكم الرتاج، وتتأبي عليك.. لاتفلتك منها- وتطير بك بعيدا حالمة بالمسكن الجميل، وبالحياة - معك- التي تفيض بسعادة متواصلة، وتتمني أن تحقق الحلم.. اليوم وليس غداً.. وبينما تعالج رتاج قلبها لتطمئن عليك مأسوراً بدمها.. أنبأتها بسفرك.. وبأنك تضحي من أجل حلمها الجميل.. الذي هو حلمك أيضاً.. لحظتها رمت المفتاح بعيداً،

وهددت بسجنك إلى الأبد، بل واعتقالك في غرفتها المدممة. ومنعك من السفر.. فكيف تظل عاما كاملا بعيدة عنك؟ من يضمن لها الأيام.. وتقلب الزمن والقلوب.. وقلبك أتعبها حتى اقتنصته!!

لن تفرط فيك.. فرحت كثيرا بسيل العاطفة وتأكدت أنها تحبك.. وأمها تبتسم في صخب البنت وهنهتها.. وأنت ترمقها وتكاد تستسلم لرغبتها.. لكن الأم قالت في حسم.

- لا تسمع كلامها.

بعد يوم واحد.. كانت هي التي تدفعك إلى المواجهة وعدم الاستسلام..

احتسى حسوة طويلة من الشاي الذي ابترد وهو يلاحظ غضبها على الأب..

- سأدعو لكما في كل مكان مقدس، وسأتحين الزمن الطيب وابتهل إلى الله من أجلكما..

لمح والده ينظر إليه ثم يبتعد بوجهه في بطء.. كررها مراراً حتى ظن أن أمراً يشغله، ويتردد في إبلاغه.. أقبل عليه قائلاً..

- قل ما يشغلك.. لقد كبرت.

- صحتي قد لا تساعدني.. فإن استطعت عمل عمرة وهبها لي.. تكن متفضلاً.

تندت عيناه ببلولة ساخنة وهو ينحني ليقبل رأسه.

– بل هو.. أمر وواجب.

احتجزه في صدره طويلاً وظل يزمله.. ودعا له بـالتوفيق وأسـرع بعيداً يداري دمعته.. وقبل أن يقبلها سحبته من يده وانتحـت بعيـداً.. صوحت بوجهها واطمأنت إلى أنه دخل المندرة.. ملأ الماء بياض العـين وسوادها..

– أنت ابني.. يعلم الله..

– لم أعرف لي أماً سواك..

– لا تنس.. أبوك مريض، وأخوك يتعلم وأنت تفهم..

غاص قلبه واحتار كيف يرد..

هي التي أنشأت، وربت، وفاضت عليه.

احتضنها فدثرته بصدرها.. وهو يرتجف راح يخلع نفسه من حضنها خلعاً.

***

وصلته رنات خافتة..

كان الزميل الفلسطيني يقف بالباب، وينقر عليه نقرات متوالية.

صكّه بصوت عال، واصفاً إياه بالكسل والخور، وأمره – في حسم– أن يتجهز في ربع ساعة ويلحق به في الاستقبال.. وأغلق البا وراءه وهو يعاد تحذيره.

بدل ملابسه، وتخفف من الأردية.. الثقيلة التي جاء بها.. فـأكتوبر يفيض بحرارة تشوي الأبدان.. ورطوبة تجلب الملل.. وأقبل على زميله في مودة حقيقية. فهو الوحيد الذي يعرفه في مكانه البعيد.. فكل من جاءوا تفرقت بهم السبل.. ضاق به الوقت فلم يتوقف كثيرا عند أحد حتى ولو كان مسافرا معه.. جاء اسمه في الكشف الأخير بـالملحق الثـاني مـن التعاقدات.. لم يكن أمامه غير أسبوع واحد.. ظـل يقطـع المسـافات كالمهوف. سفرته تلك تكتسب أهمية خاصة.. وبرغم عتـاب خطيتـه، فالسفر هو الوسيلة السريعة لتحقيق الحلم.. وشعر بحذر حقيقي.. وهـو يبدأ رحلته إلى الحلم باغتراب يداهمه.

– هل ستظل غائباً عن الوعي كثيراً؟

تنهد في عمق.

– جاء الأمر سريعاً فأربكني.

أخرج زميله علبة سجائره ووضعها على الطاولة..

– تصور أنك في رحلة.. وتنعم بها..

طافت به ظلال من وجوه يفتقدها، وأمكنة تنادي عليـــه.. وزميلـــه يحدثه عن الأهل الذين تركوا البلاد.. وتفرقت بهم السبل.. في دنيا الله.. البارد منها والحار.. وراحت عيناه تهيمان في البعيد وأنفه المدبب غاطس في دخان سجائره، ووجه الجميل يرتعش.. يرفع رأسه ويمد يده ويلمـــس في رهافة مساحة من الصدر.

– لكن الوطن.. منتصب في القلب.

تحسس شعر رأسه، وأدرك لحظة الأسى.. فتخفف قائلاً.

– موطن الحب.. ومنزل الصبا.

ارتشف شايه الذي ابترد وأسرع ضاحكاً.

– وحاضن الحلم.

ودس يده وسيجارته بين شفتيه – وأخرج محفظته.

– معك ريالات.

– قليل... أنت تعلم الحظر على العملات في مصر.

– لم يتركوا شيئاً بغير حظر.

وصاح كأنما أصابته لوثة.

– حتى أنفاسك.. يعدونها عليك..

لم يكن يفضل أن يستدرجه الحديث إلى شيء لا يحبه. وأمام بشـــر لا يضمن نفوسهم.. فالنزلاء يدخلون ويخرجون..

وفي إمالة الأذن إيحاء بالتوجس.. وموظف الفندق عينه عليهما..

والعامل يتلطف معهما كلما أتى بمشروب.

وأدرك زميله ربكته التي سقط فيها ولهفة عينيه كي يصمت فابتســـم متودداً:– يدبرها الله.. هيا بنا.

***

بدا الضوء شحيحا وهما يعبران الشارع في اتجاه الطريق إلى كورنيش البحر، وتراءت جدة راقدة– في وداعه– بين قبضـــة الهـــواء الرطـــب، ورائحة البحر، تتلوى أبنيتها – كالظلال– مع خفقات موج هادئ..

وجدة في هذا الزمان البعيد من عام **1971** مدينة صـــغيرة، يكـــاد يحتويها القادم سيرا على القدم في زمن ضئيل.. منفذ بحري مهم، ومحطـــة للوصول، وللعبور، وللراحة، وللتجهيز لأداء الطقوس الدينية.

لم يندهش حين رأى أجناسا مختلطة من البشر.. كطبيعـــة المـــوانئ.. تداخلت الوجوه والسحن، الأبـــيض والأســـود، القمحـــي والغـــامق، الوشاحات والسواري، الفساتين والجلاليب والقمصـــان والحلـــل، زي البحر والسفاري..

لم يكن يتوقع أن يرى النساء يسرن متحررات بالقدر الذي يحفــظ للمرأة قدرها ويصون حياءها.. لكنه لم ينس الهنديات وهن يرفلن بثيابهن المعهودة.. اقتربا من سوق «قابل» الممتلئ بالبشر والأغراض..

تجاوزاه.. وجلسا على مقهى صغير.. اقتعدا كرسيا مجدولا بالألياف.

صفق الفلسطيني في حيوية بادية ونادى «قهوجي»..

لفت انتباهه إلى علو الصوت، وقسوة النداء.. لكزة في كتفه وقــال مردداً:

– قهوجي.

ومال عليه قائلاً كالمؤدب:

– هكذا ينادونه.. كما أبلغني الأصدقاء السابقون.

جاءهما شاب.. صغير ضئيل، حاد البصر، يلف رأسه بشــال أحمــر كأنه عمامة صغيرة، ويدخل جسده السفلي في مئزر مفتوح، ويلفه علــى وسطه حتى أسفل الركبة بقليل فكان كمن يرتدي «جونلة» حريمــي.. عرف فيما بعد أن أسمها «الحوكة»..

– شاهي واللا قهوة عربي.

قوي ظنه بأنه يمني..

تطايرت رائحة البخور، وفاحت روائح الجيراك وأعواد النرد..

أتى بالشاي مصحوبا بأعواد من النعناع الجبلي الذي سبقت رائحته وغطت على غيرها.

أعجبه المنظر وأدهشه، فهو لم ير مثيلاً له من قبل.. أشار إلى أحد المرتادين هو يمسك بيده حبلا طويلا مزينا بترتر وشر أشيب ويدس مبسمه الطويل العاجي اللون، ويخرج الدخان مسحوبا من قائم زجاجي هائل يعلوه نور متوهج..

طلب أن يجربه.

قبض بيده على اللي الطويل.. لوم يكمل.

راح زميله ينفث دخانه، وشعل النور، ويستمع إلى فرقعة الفحم المتوهج.. وتناول هو عودا من النعناع وراح يلوكه.. وقد سهمت عيناه كأنه يغفي.

***

يترجرج داخلك مخزون تدسه وتخفيه.. لا تريد أن يطل برأسه، ولا تحب أن تبوح به لنفسك فيربكك.. مع أنك تتلذذ حين تستعيد طقسه الذي داومته وصنعته، وقدمته كعلامة على عشق يتجلى فيك.. وأنت تمضي معها درسها.. تنحنى أمام جمالها الذي تفردت به، وتترك عن صفحة وجهها عينيك الخضراوين.. وتظل حين تعود تستحلب حديثها عن العشب الذي ترسخ وأنبت الخميلة.. فتضحك في سرك لأنها أعادت وصفك لشعرها المنسدل لتصف به خضرة العين.. لعلها أدركت كيف

يحول كلامها المنغم المهموس جسدك إلى نور يشع.. فداومته، واستعادته حتى تخترق!

تراك ترتجف، وتحمر عيناك، فتبتسم. تدير رأسها وترمقك.. لـــديها يقين بأن قولها المنثور في ضي دفئها يصهر الجسد، ويبعث الوهج.. وتظل تؤلمك فتتكئ بقولها لتحرقك.. هل لاحظت اهتمام بها فراحت تقترب.. هل شعر بعينيك تتجولان فوق البدن ويتمهلان ويتكئان.. أبعدك الحياء، وقربك الصدود.. أكانت تصدك وهي تلبد مخنكمشة كقطة أليفة تـــزوم كلما مشت أصابعك على شعرها الناعم.. وأنـــت تغـــوص داخلـــك، وتغضي حياءً.. أكنت حيياً وأنت تجهد نفسك في الشرح والتفسير.

وتصنع من الصور والمجاز أكنة للخيال..

هل خطوت خطوتك الأولى.

أم هي التي خطت.. وخططت!!

لكزه بمبسم النارجيلة وصاح– ستجعلني أفر منك.. أين ذهبت؟

رنا، وانتظر فعاود الحديث في حدة مباغتة.

– أيعجبك حالنا؟

زم شفتيه، وأشعل سيجارة وضحك قاصداً.

– تمتع برحلتك.. يا فيصل..

لم يره اليوم بطوله مبتسماً، أرجع الضحك إلى حالة غيابه التي تلازمه لعله يداري به شيئا يأخذه ويلح عليه.

- بسم الله.. والله ضحكت.

راحا يتحدثان عن الخروج الذي كان حلما مستحيلاً. والانفراجة التي حدثت بعد وفاة عبد الناصر، وقسوة الأنظمة وقمعها.. فلولا العداء الأزلي تجاه الرعية ما اضطروا إلى التعرض لكل هذه الهزات النفسية التي تعطب الأبدان والقلوب..

- وها نحن نكاد نضيع.

نحى البسمة وغامت عيناه قليلا وهو يطالع عامل المقهى في حركته الدءوبة..

- هل خدمت في الجيش؟

- لم يصبني الدور.

- لو خدمت لكنت قادرا على المواجهة.

- المواجهة!! لا تذكرنا بالمواجع..

- ما صاحب النكسة وخلف يأساً شديداً..

يمضي الوقت بطيئاً. ويضغط على قلوب مشغولة.. والناس تأتي وتروح، والليل يطول.. ويزداد صخب الحركة، وأدخنة الجيراك...

– تصور.. الأمر نزل كالداهية.

لكني أومن بأن الغد يحمل أملاً جديداً.

طاف بعينيه وشاهد الرءوس والوجوه وقال..

– لعل الاستتزاف يعيد الروح مرة أخرى.

– أنا متفائل بطبعي.

كان قد عود نفسه ألا يقحمها في جدل حول قضايا تحتمل المخالفة..

وفي ظل الرأي الواحد المفروض وغياب البشر ونيابة النخبة الحاكمة عن الجميع لم يبق إلا الانضواء.. أو الولوج إلى أبواب جنهم.

في منتصف الليل اقتحموا المسكن النائي، وأسلحتهم تسبق أبدانهم.. وقلوبهم. وجوههم جامدة كصخر.. لم يرحموا أبا على المعاش، وأما أنهكها ثقل السنين وألم المفاصل وهشاشة العظام، وطأوا الصالة، وداسوا الطرقة الضيقة،، واقتادوه من فوق سريره الصغير. زاحمتهم لهفة الأم وسألت حولهم، لكنهم أخذوه.

أمام تساؤلات الأب عجز عن الإجابة..

يدرك قوة الصداقة التي تربطهما.. ومتانة زمالة العمل بالمدرسة... ودون أن يلمسه أو يقترب منه شعر بالألم الحاد يطل من عينيه كالأسنة.. وبدا ضعفه واحضا حتى ليكاد ينصهر من الأسى.. واقترب منه والتصقا

في احتضان يرتعش بلذة أبوية مجهضة. كان عــاجزاً.. مــاذا يمكــن أن يقول!.. لعله وهو يشرح درسه في التاريخ الحديث عرج على موضــوع المواجهة مع العدو.. وحالة الاستنزاف الدائمة.. وصديقه بــه حــدة في القول وجرأة.. من يصدق أن يترصده واحد في معهده العلمي ويحصــي عليه قوله، ويسجل رأيه ويشي به!.. لم يكن يصدق إشــاعة زوار الفــر والعسس الذين يحصون الأنفاس.. ويكتمونها، لكنه الآن مــوقن بــأنهم يملأون المكان ويلجئون العقول والأفئدة، ويمنعون نورالله عن خلقه.. هم أصل البلاء.

ظل يكتفي بالمراقبة والسماع على البعد، لم ير نفسه يومــا يرتــاد أماكن يكثر فيها الجدل.. والخلاف.

اندهش «فيصل» منه.. ومن شروده.. فأقبل يمتص دخانه ويتلــذذ برشفات الشاي المعطر بأعواد النعناع..

هبت نسمة خفيفة رطبت القلب المحزون.. وارتفع صــوت عامــل المقهى تجاه النصبة وهو يردد.. نار جيلة بالجيراك.. وقهوة بالهيل.. ومــاء بارد..

التقط ورقة من النعناع وراح يلوكها وعينه تحتوي الوجوه..

أقلقه حالة الكآبة التي تقبض عليهم بالرغم مــن صــكة الضــجيج وصخب الضحك.. فجأة علا صوته وهو يستشعر حالة مــن الضــعف والأذى ودوام الاغتراب.

– أما آن للعبيد أن يتحرروا.

نتر نفسه عاليا، فانسكبت بقايا الشاي علـــى بنطالـــه، واحتـــوي الوجوه، وقاس الحركة، وتصور رد الفعل، وأرهف الأذن.. خشـــي أن يكون أحد قد سمع.. ولام نفسه.. كيف وصل الحديث إلى هـــذا الحـــد الذي يؤذن بضرر.. وهو الذي نأى بنفسه عن جدل السياسة.. ولعـــن كل ما يأتي من جذرها اللغوي!!

علق «اللّي» في خطاف القائم ونهض. قبل أن يعـــودا إلى الفنـــدق عرجا إلى مطعم صغير.. ذكره بمطاعم الحسين.. صـــواني الأرز وعليهـــا الزبيب، وحبات من الحبهان، وكتل اللحم، وأطباق المرق. والســـلطة.. التهما– في نهم حقيقي– طعامهما.. ثم عادا إلى الفندق.

***

في الصباح وجد زميله الفلسطيني يلملم أغراضه ويقف أمام موظف الفندق، تبدو عليه علامات القلق والحدة.. فوجئ بعزمه على المغـــادرة والسفر إلى مقر عمله...

– لم تخبرني بعزمك..

– هل جئنا لنضيع الريالات في الفنادق؟

دار نقاش مع الموظف حول مصاريف الإقامة. أخرج محفظته وبحـــث فيها.. ونظر في امتثال..

– ليس معي ما يفي تكلفة الإقامة.

ونظر إليه الموظف متأملاً.

– ما الحل.. في نظرك؟

– إن دفعت لك فلن أستطيع السفر..

– ومن يدفع إقامتك..؟

تقدم وسأل راجياً أن يكون المبلغ قليلاً.

– ما المطلوب؟

– خمسون ريالاً.

تراجع خطوة ورنا إلى زميله صامتاً.. والموظف يعيد سؤاله.

– من يدفع لك؟

كتم غضبه، وآلمه محاصرة الزميل والتضييق عليه.. ونظـرة الاتهـام العالقة بالعيون.. ما الذي يمنع أن يعطوه ما يكفـي الإقامـة لليلـتين أو ثلاث!! لا يعرفون شيئا عن أحد، ولا يبذلون جهدا للتعرف علـى مـا يواجه المتعاقد في بيئته الجديدة..

وبدا الأمر كأنهم تخلصوا منه.. وبمهانة مزرية..

وشعر بالمجهول يقترب منه ويوشك أن يفترسه.

رنا إليه في تمهل:

- إدارة التعليم.

- أمعك تفويض؟

- معي خطاب التوجيه.

ألقى عليه نظرة خاطفة وقال..

- لا يفيد.. هو خاص بعملك..

علق كاتما غيظه:

- كان المفروض أن تدبر جهة السفر كل هذه الأمور..

بدا الوجه قلقا.. وأسى حقيقيا.. طوح بالورقة.

- ألا يعني ذلك أنني أعمل هنا؟

- صحيح.. فقط من يدفع؟

انتحى به الموظف جانباً.. وتأسف لحديثه .. وطلبه أن يرهن أغراضه.. وما معه، ليعذره لأنه مضطر لذلك.. فهو يعلم أيضاً وقانون العمل يحكمه.

وحين أخرج أغراضه.. ساعته، وخاتمه، وحقيبته الجلدية الآنيقة التي أهداها له صديق فلسطيني.. أدرك أن القيمة لا تفي بالمطلوب. وأنه يحتاج إلى حقيبته وساعته..

– لك أحد يعمل هنا!

أعطاه الاسم والتليفون والإدارة التي يعمل بها..

اتصل به وتأكد من البيانات.. واطمأن إلى أنه سيرسل المبلغ في حولة بريدية، وأخذ على الزميل تعهدا بدفع المبلغ المطلوب، وأنه سيسلمه إلى من يضمنه بمجرد وصول المبلغ.

وارتعش الجسد.. عجز عن التحمل حتى كاد يسقط..

ظل يسأل نفسه.. من يضمنه هو؟

ليس له أحد هنا؟..

وما معه لا يكفي رهناً لمبلغ أقل!!

ماذا يفعل إذن.. وكيف يخرج من ورطته!.

اجتاحه ألم حقيقي. وخشي أن يكون على حافة تيه.. يجهله.. وأنب نفسه على كمونه الذي أصابه بالعجز وعلى رفضه أن يخبئ الجنيهات المصرية التي دفع بها صديقه.. خوفا من أن يبط متلبسا بها.. وكأنه الوحيد الذي يفعل ذلك..

ودع زميله في ود حقيقي وظل يتابعه حتى اختفي.

تمنى لو صحبه إلى الموقف، فلعله يتعرف على المكان، وطريقة السفر، لكنه قبض على ريالاته. وشبح المحاسبة يطارده.. وأحس بفراغ عـــريض وعميق، وأنه مقبل على أيام تحمل خطراً قادماً.. وعليه أن يتصرف.. وأن يعتمد على قدرته على مواجهة الأمور ويقلل بعضا من اعتمـــاده علـــى الغير.

***

انتحي ركنا نائبا في بهو الفندق وراح يحصي ما معه.. لم يكن الأمور يحتاج إلى كل هذا الحرص وهو يضع ريالاته في جيبه.. فلن يفي المبلغ بما يطلبه الفندق.. وليس معه ما يرهنه.. وأمامه سفر طويل إلى جهة عمله.. وجفل وصورة زميله الفلسطيني تخايله وتوحي له بأنه أخذ الأمان معـــه.. وتركه فرداً، تؤلمه الحاجة.

بات الموقف يؤذن بالقلق وينأى بالمسرة.. ويلح السؤال.. ما الـــذي سيفعله؟.. لا مال.. ولا أحد يعرفه فيستدعيه، أو يضـــمنه.. وهاجســـه شعور مزاحم بأن مفاجأة الخروج.. قد تـــؤدي إلى مفاجـــأة العـــودة.. وستمثل عودته مأساة لخطيبته.. وهي التي تمني نفسها بمسكن جميل وليلة تتحاكي بها صديقاتها..

– سأتحمل.. وأنتظرك عاما بطوله..

وتدبر رأسها وتداري دمعات تتندي بها العين، والوجه تقبض عليه زمة تجلب الأسى وتقول في همس خافت.

- سيمر العام ثقيلاً.

وأنت ترمقها خلسة وصديقك يبتسم لك، ويدعوك أن تتصالب وتكسر قشرتك الخشنة التي ظلت زمنا تتدرع بها، وأن تتخلى عن العزلة.. وتقترب. ترنو إلى وجهها الجميل، وشعرها الليلي المنسدل على الكتفين والصدر وتبتسم في رجاء.

- هي سفرة قصيرة.. وأعود.

ويبدو الأنف أحمر راشحاً..

تأخذها الأم في حضنها. وتعطرها، وتمسح وجهها.

تمد يدك، فتستكن أصابعها بين راحة اليد والأصابع الحانية، تشعر بأن عصب الجلد يمشي بأعصابها، فينبض القلب، ويرتجف الحس. وأنت تضغط ضغطة رهيفة وصلت إلى أعماقها.. حدقت فيك حتى كادت العين تحتويك.. وسحبت أصابعها الطويلة الرقيقة وهي تتمتم في فرحة بادية.

- تلك السفرة لي.. أحرص عليها.

وترمقها متعجبا ومندهشا.. وهي تفتح قلبها وتوصيك بها، في غيابك وحضورك.. وسفرتك النائية.. فالحريص من يستفيد من الفرص المتاحة.. والخروج في هذا الزمان يكاد ينعدم.

– لا تخذلني.. سأتباهي بك..

تضحك أمها، فتتبدى وجنتاها مكـــتزتين وشـــفتاها تنســـحبان في رهافة.. وتحكم فتحة «الروب» على نحرها الأبيض.

– وجه ابنتي.. يجلب السعد.

أربكك الحديث وكاد يعيدك إلى حياتك، فتابعت تقول في فرح.

– شهر من الخطبة.. وجاءك السفر.

تمسح شعر ابنتها الليلي.

– غيرك ينتظر بالسنين.

وتغيب في بسمتها الصافية.

تتملى وجهك وتقرأ ملامحك. تنبـــهك إلى أن للوجـــوه أســـرارها وللأوقات سحرها.. وأن اللقاء بينكما حدث بفعل الأرواح المنجذبـــة.. وتأخذك بحديثها عن المسكن، والعرس، والهدايا..

وترهف مشاعرك وهي توصيك بالصبر. وحسن الادخار لتفي بما هو مطلوب منك..

والبنت تتدثر بحياء يسيل من بياض العين وهي تردد على مسمعك.

– تلك سفرتي.

يوجعه الموقف، ويسحب منه شعوره بأمانه– فكيف يفي بذلك كله والمأساة تطل عليه مزاحمة.. ولما يقض سوى يومين في غربته.. كان يلح في السؤال:– كيف سيدبر مصاريف السفر؟

وينظر إليه زميله الفلسطيني قبل أن يغيب في العربة وهو يقول:

– تعودنا.. تنبه لنفسك.

لا يزال منظر رأسه بشعره المتطاير يزحمه وهــو يصــيح بصــوت كالصراخ.

– تجلد يا رجل.. لا تستسلم.

***

وتعود إلى داخلك.. تغوص فيه وتســتأمره.. تناوشــه وتجادلــه.. فلديك حلمك الذي سافرت من أجله، وحملت أمانته.. عليك أن تهيــئ نفسك للمواجهة وتثبت أنك قادر وتســتطيع.. أن تنــاوش الوقــت.. والمكان معاً..

لا تجعل شيئا يبعدك عن قرارك.. وعليك أن تسقط عزمها عليــك.. لا تستسلم..

خرج الصوت عالياً كالقذيفة فاتجهت العيون إليه..

صادته عينا الموظف فزم شفتيه امتعاضا ومضى إليه.. يدرك أنه يقدم الإعاشة.. وعليه – هو– أن يدفع.

بادره قائلاً قبل أن يحادثه:

– قل لي.. كيف أذهب إلى الإدارة التعليمية؟

اندهش من السؤال:– لكنك مسافر إلى الجنوب!

– المنطقة تتبع جدة.

حدد المكان وأرشده إلى الحافلة ونصحه أن يدخر ريالاته ويتجنب اكتراء عربات الأجرة.

خاضت به الحافلة شوارع ودروباً، امتصت عيناه ما سمحت به الرؤية.. تعكس الطرق فراغا في المساحة والبشر.. يلمح في الدروب حركة متنامية وسحنا متباينة.

واجهته لفحة الهواء الساخن المشبع بالرطوبة وهو يطلع البنايات الواطئة.. جذبه المبنى الأبيض بواجهت الفسيحة فمضى إليه.

سأل عن مدير الإدارة. تأمله الحارس واستفسر منه عن السبب.. كاد يحتد وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.. فأسرع قائلاً بإهمال...

– وكيل الإدارة موجود.. الدور الثاني.. يمين.

دخل عليه فوجده يجلس في زاوية من الحجرة الواسعة.. المكتب فسيح وخشبه مموّه بتجزئعات بنية جميلة.. وثمة مقاعد مرصوصة.. وطاولة خشبية بلون المكتب.. تدور مع الحائط أرفف أنيقة وفقيرة في التجهيزات عليها ملفات ومجلات.. وكتب متناثرة .. ثمة سحابات شهباء تتطاير برائحة البخور.

دارت عيناه في المكان.. وأحس براحة طارئة.. لكن القلق عاوده مرة أخرى..

خلع رأسه من ملف أمامه.. ونهض.. رحب به في صدق أحسه.. فخفف عنه بعضا من ألمه الذي يجتاحه.. وطلب الشاي.. قصد مقعداً قريبا.. والتقط كوبا صغيرا ممتلئا بشاي يميل إلى الصفرة... قدم له الأوراق الخاصة بالتعاقد، وخطاب التوجيه واستمع إليه.. ظل يرنو إليه وحالته بادية له، تشي بضغط هائل يجثم فوقه..

– أنا متعاقد.. ووصلت الخميس..

ابتسم وهو يقرب المبخرة من غترته ووجهه.

– سلامات..

– جدة محطة وصول.. أسافر بعدها إلى الجنوب..

لم تفارقه البسمة وهو ينظر إليه وكوب الشاي الأصفر في يده.

- كنت أتوقع أحدا ينتظرنا وييسر لنا سبل الإقامة.. أو السفر.
احتسى رشفة وركن الكوب بعيداً.

- الاعتماد على النفس مطلوب.

- لا أعرف شيئاً عن المنطقة.. ولم يسبق لي السفر..

- كان من الأفضل أن تعرف.. من مقر التعاقد..

لعله تأمله، ولم يفته ملمح الاستياء الذي ألم به.. واعترف بأن التقصير متبادل، فلا هو سأل، ولا أحد هناك تفضل بالتوضيح..

- والآن.. أنا نزيل، بفندق الحرمين... وليس معي ريالات تكفي الإقامة.. والسفر إلى الجنوب..

- يدبرها الله.

كان حرصه شديداً كي يوضح له الأمر على الحقيقة.. فالمال لا يعوزه، لكنه التزم بالتعليمات ولم يحاول أن يهرب عمله.. أو يخفي جنيهات مصرية.. يقوم بتحويلها بعد الوصول..

- تعلم أننا لم نستطع تدبير الريالات المطلوبة لأمور خاصة بتنظيم العمل وتسجيلها رسميا على الجواز..

وقدم له الجواز، وأشار إلى قيمة العملة المسموح بها.

قلب في الجواز وتأمله بشكل محبب.. هكذا بدا له.

– المبلغ لا يفي.. لكن صورتك شباب.. والشباب مغامر..

تناهت إليهما طرقات على الباب فكفا عن الحديث..

دخل شاب سعودي بملابس بيضاء وغترة شفيفة. يميل وجهه إلى الدكنة، وجسده نحيف وقصير نسبياً.

ألقى التحية واتجه إلى رف جانبي وبحث فيه، وأخرج ملفا ثم وضع مكانه عدة ملفات.

– منصور..

استدار في احترام مصحوب.. بحركة توحي بدفء إنساني.

– سم.

أثار الرد فضوله. الحرفان ملهوفان، مدمغان.. في تساؤل يوحي بأن المتحدث يكاد يأمر.. وأن الآخر يلبي الأمر.. وأدرك هو أن المراد من المقطع الصوتي.. هو.. نعم..

– الأستاذ مصري.. ومتعاقد للعمل في الجنوب.

خطف نظره عليه وأقبل مسلماً.. مرحباً.

– يا هلا..

توجه إليه وكيل الإدارة ووجهه تفيض منه انفراجة تجلب الفرح..

– من حظك.. أن منصور من نفس المنطقة التي ستعمل بها.. وهو قادر على تسفيرك إن شاء الله..

وينظر إليه ويقول:.. يقيم الآن بفندق الحرمين.

وتناول ورقة، وراح قلمه يجري بكلمات متأنية واكتسب وجهه مسحة جادة.. أنهى الكتابة، ووقع.. ثم ختم.

– منصور.. اذهب معه.. وسوّ الأمر مع الفندق.

وشعر هو يناوله الورقة بالتقدير الذي يترقرق من عينيه، وبنظرة العرفان البادية، وبارتعاشة الوجه الذي ارتخى رضاً..

ودعه حتى الباب... وهو يكاد يذوب خجلاً.. وامتناناً.

قبض على الورقة في فرحة تفيض منه وتشمل ما حوله. لم يصدق أنه سيفلت من تلك الأزمة الطارئة بهذا الحل الذي ما تخيله.

وتاهت عيناه في البعيد وهو يتمتم.. لعل البنت أرسلت دعاءها وراءه!!

كانت الورقة الرسمية الموجهة إلى الفندق.. تطالبه بأن يقوم بتسجيل قيمة الإقامة والإعاشة، وإرسال المبلغ المراد إلى الإدارة التعليمية بالجهة التي يعمل بها المتعاقد.. لتنوب عنه بدفع المطلوب ثم تخصمه فيما بعد من استحقاقاته المالية طرفها..

انفسح الصدر وانشرح، واكتسى وجهه بعلامات الرضـا.. كـأن وزرا هائلا تخلي عنه.. وباركته القلوب التي أرسـلت دفقهـا معـه.. ومنصور يتملاه في حالته الجديدة.. ويقبل عليه في مـودة استشـعرها، فخفف عنه كثيرا مما شعر به.

– والآن ماذا تبغي؟

ونطق في قوة.. كأنما يخشى ألا يسمع.

– السفر.. حيث أعمل.

ويضحك منصور، تهتز غترته.. ويقبض على ساعده..

– ليس الأمر سهلاً.. فالطريق وعر..

ومواعيد السفر متباعدة.. مرتين في الأسبوع.. غالباً..

تتراءى أمامه مفردات المكان، تستقبله بوجه مغاير ومنصـور كأنـه يناصحه.

– لا تتعجل. المكان يطرد أصحابه.

بان عليه قلق يزاحمه، يعكر عليه فرحته، ويذكره بما نسيه.. وضعت داخله ينبت في استحياء يطالبه أن يستريح قليلاً من عناء ما أصابه مـن توتر نفسي سحق أعصابه وكاد أن يعود به..

قال منصور وهو يصطاد هذا التوق الداخلي في عينيه.

– قد تمكث يومين جديدين.

وضغط على يده مذكراً.. بلقاء المساء..

***

في بهو الفندق وجده ينتظره، هش له، وسعد... امطأن لوجوده.. وأنس به، واعتبره سندا له في غربته.

تجولا في الحي التجاري القديم، ثم مالا إلى طريق البحر، ودلفا إلى المقهى.. المقهى هي المقر في النهاية، وهي التي تكسب الحديث متعته.

يرسل البحر هواءه المشبع بالرطوبة.. ثقيلاً ولزجاً. تنفلت الأضواء في تباعد، والأصوات تختلط.. جلسا على مقعد مستطيل ومجدول..

وتشعر براحة، وباطمئنان يشملك.. والوجه المتخفي في غيمته.. يبزغ في هالة من التألق والوهج. تلمس البهجة فيه. والحزن معاً.. ضفيرتان تتداخلان.. وددت لو قدرت أن تخبرها بأنك تجاوزت أزمة كبيرة، وأن سفرها بدأت.. وتمنيت لو تخرق الناموس وتأتي بها مجسدة.. لكنك تراها تنسحب.. من أمامك وتخذلك.. تولي شطرها تجاه الفضاء.. وتتخفي قليلاً– قليلاً. تجذب قلبك معها وصوتها يذكرك.. إنها سفرتي. وينفجر صوته ضاحكاً.. وزاعقا وهو لكزه بمبسم النارجيلة.

– عساك طيب.

كان العمود يرش ضوءاً كالرذاذ.. وحصيرة البحر سكانة تعكس أضواء بعيدة.. وهو ينظر إلى منصور في إمالة رانية..

– هل يجب أن أشكرك.

– هذا.. واجب.

– أزحت هماً كبيراً.

ناوله سيجارة كرافن.. أشعلها بتؤدة وعيناه تطوفان بالوجوه والأزياء والسحن..

أخرج عددا من الأوراق وبسطها أمامه.

أخذ نفساً عميقاً.. تابع الدخان الذي تطاير في بطء...

– بروفة لعمل مجلة حائط..

أخبره منصور بأنه يعمل مدرساً في المرحلة الابتدائية.. وارتأي المدير أن يسند إليه الإشراف على المجلة.. وأنه يطلب رأيه ومشورته.. وتشاركا في التصميم وإعداد المواد.

تناولت الافتتاحية.. دعم المملكة للتعليم، الموضوع الرئيسي حوار عن مجهودات الإمارة في تقديم الخدمات للمواطنين والسهر على راحتهم وتحقيق حاجاتهم.. يتصدر الموضوع صورة للأمير وهو يصافح مواطنا في مناسبة.. في برواز جانبي قصيدة شعرية باللهجة المحلية. في برواز مستطيل

في الجانب الآخر قصة حول خباب بن الأرت.. الذي ضحى بنفسه في سبيل العقيدة.. أسفل الموضوع كتبت ملاحظة ببنط مغاير: «هذا نموذج يقتدي».

في دائرة أعلى اليمين زينت المجلة بآية «اقرأ باسم ربك الذي خلق».

وفي دائرة أخرى على اليسار وضح الحديث «طلب العلم فريضة».

وزينت صورة الكرة بين أقدام اللاعبين مستطيلاً بعرض المجلة وبرز عنوان ببنط كبير: «الأهلي يسحق النصر».

ظلا يعيدان قراءة الحوار. والافتتاحية أكثر من مرة حتى وصلا إلى المستوي اللغوي المطلوب.

وأوغل الليل.. وأغطش الكون..

وقال منصور وهو يودعه: غدا في المساء سنذهب إلى موقف الجنوب.

كان أمامه نهار كامل فقرر أن يقوم بجولة بالحي التجاري القديم.. تخفف من ملابسه.. فالشمس تسخو في حرارتها.. والعرق ينز بشكل يضجر النفس.. والرطوبة تقبض على الأنفاس والصدور.

تملى البناء الجديد الذي يطل على طريق البحر قبل أن يلج إلى سوق قابل.. كانت البناية تعلو، وآلات البناء تتناثر.. عرف أن اسمها «عمارة الملكة» افترست عيناه الأزقة الضيقة والدروب الملتوية.. والبواكي

الواطئة، والمنحدرات الصخرية الدقيقة.. ووراءه جمال اوافذ والمشـــربيات بتقاسيمها العربية القديمة، وبفراغاتها ذات النسب الهندسية والجماليـــة.. تذكرك بأبنية الحسين القديمة.. وطرازها العربي النادر.. والـــذي يبـــدو. كأنه الفسيفساء..

حرص على أن يلم بمفردات السوق.. فراحت عينه تضيق وتتســـع وتقبض على المرئيات المتلاطمة.. يزدحم الســـوق بـــأنواع الأنشـــطة المختلفة.. ثمة محلات للأقمشة بأنواعها، وأخـــرى للجلاليـــب القطنيـــة والصوفية.. وكذلك الطواقي.. والمسابح التي تتدلى بشراشيبها الملائمـــة للون المسبحة.. محلات الأحذية.. والشباشب والأخفـــاف، والمحـــافظ، والحقائب الجلدية.. تلمع وتزدهي واجهاتهـــا.. والحلـــل.. والبناطيـــل. والقمصان من كل صنف وملة. تغري بالشراء.

ومحلات الجملة تزدحم بالأرز، والبقول، والسكر، وصناديق الشاي والمكسرات والبهارات بأنواعها وصفائح الجبن، وأجولة الفحم وقطـــع الخشب الصغيرة، فضلا عن الأدوات الكهربائية الأخرى.. تجذب العـــين مساحات صغيرة كالشبابيك المغلقة والمسيجة بأعمدة حديدية وواجهاتها من زجاج لامع.. تطل منها العملات الورقيـــة والفضـــية بأنواعهـــا.. وبجوارها تقبع – في ازدهار– محلات الذهب العارة بالمصاغ والحلـــي... الصرافة والذهب معاً.

في باب مكة حارات ضيقة وقديمة، وأزقة تكاد تطول بيوتها يداك إن مددتهما.. وتتلاصق بنايات عتيقة فلت طلاؤها، وبان حجرهـــا الـــذي

شيدت به، وتهدم في أنحاء وزوايا الجدران. وبقايا مظاهر جمالية تتمثـــل في طرز البناء والمنمنمات الخشبية التي بدأت تتآكل، وتتساقط أشكالها..

البيوت تحمل عبقا زاحما من التاريخ.. وحوادث الأيام ومجرياتها تطل من واجهاتها.. ولاحت «الرواشـــين» الخشـــبية المموهـــة بالفراغـــات والمجسدات الهندسية المدهشة.

قطعة فنية من «الأرابيسك».. والنوافـــذ تبـــدو ذات مســـتويين.. ضلفتان كبيرتان، وأخريان صغيرتان.. تنوبان عن الشرفة.. وبالجـــدران فتحات كالمناور، تطل من فراغها أشكال على هيئة النجـــوم والطيـــور والخطوط المتقاطعة..

يأخذك الزحام من كل جانب.. حتى لتظن أنك لن تجد لقدمك حيزا تضعه فيه وسط الحمالين بعرباتهم الصغيرة.. والمتلكئة..

تأكد له أن القدم يفيض.. وأن يد التغيير لم تعرف طريقها إلى هـــذا الحي العتيق.. مع أن البراح خلفهم واسع وعريض وممتد بامتداد الأفق.. إلا أنهم لا يفارقون بيوتهم، ولا يحبون أن يغادروهـــا حيـــث الأمـــاكن الأخرى الأكثر اتساعا وتحديثا...

ولعله من أسباب التقارب الحميم البادي في الســـحن والعلاقـــات وطريقة الحديث والتعامل.. علاقات دافئة.. دفء الزمان العبق..

وأنت ترى هذا النوع من الأبنية التي تتكئ في تلاصـــق ملـــتحم.. يدهشك أن ترى بعض الدور الفخمة لبعض الأسر العريقة في المدينـــة..

ولقد استمت الأزقة والحارات بأسماء عدد من هـــذه الأســـر كزقـــاق الجفري، وآلنصيف، والهزاوي.. وبرحة مهنا وحارة الســـبيل، وزقـــاق الحلاوة.

وهو يمضي في رؤيته لتضاريس المكان دهمه خاطر أرجفه.. لو شـــب حريق في هذا المكان الذي يشبه التيه.. فكيف ينتهي؟.. نحّى الخـــاطر.. وراح يترقب عينه وهي ترقد – متأملة– على مفردات المكان وطـــرازه الفريد.

توقف عند مدرجات الدرب المرصوص بمدكات صـــوانية وقطـــع صغيرة من الحجارة.. هالة امتلاء المكان بالناس.. كان أغلب من رأى من النساء.. بدون مكتسيات بعباءات فضفاضـــة، ووجـــوههن مســـتورة بالخمار.. والعيون نافذات كالبريق..

شدته الهنديات ببطونهن الموشومة والعارية وتعجب ألا يحظـــى هـــذا المنظر بالانتباه.. لعل الناس تعودوا علـــى الرؤيـــة وخلطـــة الوجـــوه والسّحن.. فجدة ميناء.. وهي ككل الموانئ تستقبل العديد من الأجناس بأزيائهم وملابسهم الوطنية.. والشعبية.

زاحمك الصخب، وقبض صدرك ضيق المكان.. وفاجأتك.. غطـــى هواها عينيك.. تلوح أمامك كفراشة تطير.. صورها تـــداعبك وتطـــل عليك، وتملأ الفضاء فينبهم ولا ترى ســـواها.. تحتـــار وأنـــت تتملـــى الوجوه.. عربياً، أو آسيوياً، أو كردياً.. فيسقط الوجه على كل الوجوه

النسائية. وتقترب وتتملى، فتروح فاردا ذراعيك، منافحا عنه وهو يجمع الوجوه في واحد.. وتخشى عليه منه.. فتلتقطه.. وجهك الـذي يتبـدى ويتأبى على الوجوه.. تمنيت لو كانت معك، لكنت صنعت من شـعرها خميلة تظللك ومن عينيها مرفأ يؤويك..

ويخرجك صوتها من حالتك.. إنها سفرتي.. فتخلع البصر مما ترى..

.. اقترب من دكاكين العطارة.. واجهته الرائحة فتنفس عبقـا جميـلاً.. كان معظم الواقفين من النساء.. والمكان يضج بصـخبهن وثرثـرتهن.. بدت حركاتهن زاعقة، ومتداخلة.. والبائع يروح صاعدا وهابطـا يلـبي الطلبات في سرعة أذهلته. وشى نشاطه بتوقد عقلي..

وساعدته نحافته.

ذكّره الموقف بدكاكين العطارة في بلده.. وبالمواسـم، والمناسـبات الخاصة.

وهو يقترب بحرص وصله صوت ناعم.. فتوقف واستمع.

– عبئ لي «عود».. و«مر».

اندست يداه في الأجولة.. وأكياس الورق.

أزاحت خمارها فتبدى الوجه مليحاً.. رمقت ما أمامها ثم اسدلته.

– ربع هندي.. وجاوي.

تعبث الأخرى بحبات الفول، وعيدان النعناع البري..

- ما تنس الشاي.. والهيل..

وتشير إحداهن بأصابعها الممتدة حتى كادت تصيب عينيه.

- أخرتني.. كيلو فول وكيلو أرز.. هيا.

تداخلت مع الواقفات، وانحنت تدس يديها في أجولة التوابل..

- مالك.. «وين».. الكاري، والفلفل.. والكمون.. والقرفة وما تنس الصابون.. والمنطف.

شبت البنت الصغيرة على أطراف أصابعها وزاحمت.. صاحت عليه ولم ينتبه لها.. مطت رأسها طويلاً، ثم شدته من حوكته..

- أبغي شبة.

وهو يعبئ الفول، والصندل، الأرز.. حادثها في إهمال.

- بكم؟

- بريال..

لم تمكنه الزحمة من إظهار غضبه.. فتأفف.

قلبت واحدة من الواقفات بعضا من أغراضها.. أدهشها أن تجد حبوب القمح مختلطة بحبات الأرز، فنحته جانباً، ورمت بلفة معها فطالت

رأس البائع. قفز عبر الأجولة فأخذت قدمه معها عبوة من الأرز وأخرى من الفلفل. زمجر في غضب، وبدا عليه خوف تقلصت له ملامح وجهه.. فسيّده سيخصم ما يتلفه من راتبه الضئيل.. ولن يمنحه مزيدا على صيانته لماله. تجمع البعض من رواد السوق.. وكف الحمالون عن جر عرباتهم.. واستند عامل النظافة إلى نتوء وراح يتطلع..

أحس به يزاحمه ويقترب منه.. حتى يكاد يلتصق به.. شد قامته وتنحى قليلاً. اتسعت المسافة بينهما فمال عليه الرجل.. كتم قلقه.

– البائع أهان الحرمة.

أومأ برأسه، وامتعض قليلاً.. ولزم الصمت وعينه تباعدت لعله يدرك نفوره.. عكس وجهه بعضا من الشك..

– كل واحدة تشتري ما تحب.

ضحك ناخسا إياه في جرأة خاف منها.

– وتبيع ما تحب.

وصلة المعنى.. فاستدار.. وراقب المشهد من جديد.

كان البائع قد عاد إلى مكانه وراح يعمل.. وعينه مصوبة إلى النساء وهن يملن ويفاصلن، وتعبث أصابعهن بالأغراض..

وتمتد الأيادي داخل العباءات.

وعلا صوت الرجل الذي كان يجاوره إلى حد الالتصاق.

– تنبهوا.. احذروا شيئين.. المرأة والزيت.

علا الضحك.. واستدارت الرءوس إليه، فاتجه ناحية الدكان ودنا.. غاب في زحمة الأصوات والزعيق وألفاظ السباب.. ورآه مـــن وقفتـــه المتأملة يزاحم.. وينادي على البائع ويطالبه في إلحاح..

والبائع يروح ويجيء في حركة هابطة صاعدة. كان يلـــبي طلبـــات النساء في ود واضح.. تغيرت لهجته، وابتسم حينا، ورمق الوجوه خطفا حين تسفر، فتخطف بصره.. أو يقبض على الجسد ببصر حـــاد حـــين تنطرح العباءات عن الجسد أو تميل قليلاً.. تصـــطاده عيـــون النســـوة ويتجاهلن ويملن قليلاً، غير من سحنته فأراحهن..

لمح الرجل وهو يشب وينادي على البائع.. ويشير إليه..

يتوقف البائع محتدا، فهو لم يسمع منه شيئا، حتى يلبي طلبه. أقلقـــه الإلحاح، وتداخل الرجل.. أجاب محتدا ونظر عينيه تحتويه في غل وتعكس درجة التلبس التي وصلته.

– إيش تبغي!

رآه مرتبكاً..

ارتج واحتار.. وسأل نفسه. حقيقة ماذا يبغـي!.. يزعـق ويضـج بصوته، ويميل بجسده. وينادي.. ويلح.. والآن ماذا يريـد.. خشـي أن يفتضح امره فقال في هدوء حط عليه كأنه بلادة...

– صابونة لوكس.

تفرس فيه البائع مغتاظا وتمنى لو يقدر عليه.. لصفعه..

– كل الضجة لصابونة.. «مافي»..

كوم بعضا من الأكياس وراح يعطيها لأصحابها، في حين راح الرجل يظهر غضبه واحتجاجه..

خفف قليلاً من لهجته ليداري حرجا ألمّ به..

– أنت تحابي النساء..

التوت الرءوس فجأة، وبرقت عيون النسوة من وراء الخمار فجذبه واحد من المارة بعيداً.. وهو يردد كالنغم..

– ومن لا يحابي النساء..

وشده مرة أخرى من كم جلبابه.

– ابعد..

لمحه يقترب منه، حاول أن يفلت.. فلم يمهله واستدار فجأة. همـس في أذنه كأنما يخصه بنصيحة.

– هن.. يمتن في الزحام.

ويرفع سبابته في وجهه.

– يكومن الأغراض ويرمينها.. فيما بعد..

ويبتسم طارفا بعينه..

– كل واحدة تشتري شيئاً وتخبئ آخر..

أنا أدرى بهن.

وهو يبتعد عنه، لمحه يقترب من دكان آخر وعبارته الأخيرة تـــرن في مسمعه.

– انج بنفسك منهن.

يلم شتات نفسه.. ويقرر العودة إلى الفندق.

***

موقف الجنوب غاص بالناس.. وبالمركبات والدكك الخشبية، الباعة الجائلين، والمقاهي الصغيرة،... تبدو المقاعد مضفورة، والنارجيلة قابعـــة بليّها المزين، وصواني الشاهي تتناقل بين الأصـــابع، «ودلاّت» القهـــوة تتراص فوق المناضد الكالحة.. والمخدات الصغيرة مبثوثة للاتكاء فـــوق العنجريب.. وعربات «الجيب» الصحراوية ساكنة هامدة، تمتـــد إليهـــا

الأيادي تلميعا وتنظيفا وضبطاً.. حقائب السفر متناثرة، والأحمال المتنوعة مربوطة بألياف صناعية.

المسافرون يتوافدون في ضجة من تعود المكان والوجوه..

وهو يرنو إلى المكان في خطفة عين.. رآه ينتصب أمامه.. ويقدم خدماته.. يرتدي الجلباب القصير، والصديري المزين بخيوط القصب- طاقيته بيضاء متصالبة مطرزة بخيوط صفراء.. وفي حنية الصدر خنجر مغمود في حمالته..

قال متلهفاً:

- مصري!

باغته فتراجع.. كان «منصور» قد ابتعد عنه وراح يتحدث مع البعض في بشاشة وجلبة.. ظلت رأسه تتطاول على «منصور» يخرجه من حرجه.. لكنه كان قد أخذه الحديث.

اطمأن لما رأى، وشعر بفرح داخلي لتلك التحية التي قوبل بها، واعتبرها تعويضا عن الألم الذي اعتراه..

وقبل أن يجيبه مد يده وصافحه...

- متعاقد جديد.

أقبل عليه، وحمل حقيبته، وحدثه وهو يمضي به إلى ركن هادئ من المقهى الصغير عن زمن الخلاف الذي حرم الصبية من التعليم المناسب.. وبصق بقوة وهو يردد: إن أخطاء الكبار لا تصيب سوى الصغار، وابنه محفوظ ترك المدرسة حين وجد أنه أكثر دراية ممن يعلمه.

ضحك في صخب فطري.

- أوحشتمونا والله..

لم يكن يدري أنه مرغوب فيه، وأن الرجل يعامله كأنه يعرفه، أو كأن أحداً أوصاه به.. ارتأي أن ينتظر، فلعل وراءه شيئا.. فما يقوم به يستدعي التشكك.. اقتحمه، وقدم نفسه إليه ورحب به، بل وآنسه. واختزل المسافة بينهما.. وأشعره بأنه كالضيف العزيز.

خرج عن دائرة الدهشة وأراد أن يبدو بصورة طيبة تبقي أثراً يتذكره أثناء السفر.. فما دام الجنوب محطته فلقاؤهما وارد.. ضاحكه، وبش له، وتحرر من جموده، وقرر أن يعزمه على حسابه الخاص واقترب منه، امتدح لهجته وزيه..

- أنت يمني.. ميزك الزي واللهجة.

- الزي تجده في الجنوب..

وفجأة ضغطت على صدره فآلمته، لكنه استشعر الصدق فيها.

- رمالنا ارتوت بدمائكم.

وهزة في قوة وهو يردد..

– دعني أرد الجميل..

تردد وهو يقول خجلاً.

– دعني أحييك.

علا صوته في اعتراض ويمّم تجاه النصبة وعاد بصينية الشاي وأعواد النعناع.. هبت الرائحة فأنعشته، أمسك بعود ريان والتقط أوراقا داكنة الخضرة.. شعر بلسعة المذاق وبلذة الطعم.. وتذكر منصور.. وهو يلوك في شراهة أعواد النعناع.. شب على أصابعه وراحت عيناه تبحثان عنه، لم يكن يدري أن احتياجه إليه بات قويا، وأن علاقته معه اقتربت من الصداقة وعلت على الواجب.

حدق فيه وهو يمس جلدة الجراب.

– لن يفرغ الآن.. ما إن يراهم حتى يأخذوه ويبقوه طويلاً.

– من؟

–منصور.

دقق النظر فيه وتشكك في قوله.

– تعرفه.

– ولد أختي، ولد زين.. أوصاني بك..

غرق في ذهول داخلي وراح يستعيد المواقف. عله يدرك متى قابله. ومتى أوصاه به.. عجز فاسترخى على مقعده واحتسى الشاي مستندا إلى المقعد الليفي.. ومدد ساقيه على استحياء.. وقف أمامه متصالباً.

– والآن تعال معي.

حين مال لالتقاط الحقيبة طالبه بتركها وابتسم في ثقة:

– اطمأن.

أخذه من يده في ودّ باد.

– من حظك مسئول التعليم موجود.

كان يتكئ على الكرسي، ويقبض على «لىّ» طويـــل.. والمبســـم في فمه، وعيناه تحدقان فيهما، يرسل إشارة الترحيـــب بملامـــح الوجـــه.. والقهوجي ينحني على قائم الشيشة، ويبدل الحجر.. يضغط «الجـــراك» ويضم مرات متوهجة تحت ضاغط هرمي مثقوب متصل بالقائم بسلسلة رقيقة لامعة.

سعل بشدة، ودمعت عيناه، كبس طاقيته، ونحّى غترته، وأبعد المبسم ورنا في حيدة ثم مال برأسه ونادي على القهوجي.

– شاهي.

ضغط المبسم في لذة بادية..

– هذا معرفة ولد أختي منصور.

هز رأسه.

– متعاقد جديد!

– نعم.

– يا هلا .. بيك..

حجب الدخان نظرة متسائلة.. لكن عينيه وشيتا بتعجب طارئ، فزم جبهته ثم أرسلها في استسلام.

– فرصة سنحت لك.. وهربت من غيرك.

استوعب الحالة، وطريقة التعبر، وخشي أن يكون الرجل قد اعتبر التعاقد أمراً كبيراً.. فلزم الصمت.

نادى على «اليمني».. فهرول.. طالبه بالجلوس ومشاركته التدخين.. بدأ يتحدث عن الأيام القليلة التي قضاها في مصر. سكن بحي الدقي.. وارتاد أماكن السمر.. والسهر.. ظن وهو يتجول في الشوارع أن انفجاراً يوشك أن يحدث... وأن محاسبة يجب أن تتم.. لكن الوضع لم يتغير بموت الزعيم...

الأمور والله تسوء.. والحرب تضغط على الناس، لا أدري كيف يتحملون؟

تسمون ما يحدث بينكم وبين العدو استتراف.. أنـــتم بـــارعون في تشقيق الكلام.. لكن الأمر والله صعب.

– الهزيمة قاسية.

الأمر لا يبشر بخير.. هل في صوته نوع من التشفي أم أنه يسترســـل لمجرد الحديث!! ما الذي يتوقعه منه.. وهو المسئول!!.

حالة العداء القصوى التي حدثت في الوسط العربي، ظلت عالقـــة في الذهن، وموقف النظام من الرجعية ورموزها.. ودرجات الاستقطاب في المنطقة قامت بشروخ عميقة.

وكأنه فهم حالته.. فرنا إليه، وهز رأسه كأنمـــا يســـتزيده فواصـــل حديثه.. مع أن اليمني كان يلاحظه بعينيه كي ينتبه.

طوح المبسم في وجه اليمني، وخرجت الكلمات منفلتة من غيمـــات الدخان الشهباء.. وأنت نفسك حين تمشي في الشوارع.. أو ترتـــاد دور السينما أو المقاهي، أو تجلس على الكورنيش..ترى الناس يحيون حيـــاة طبيعية.. وكأنهم لم يرسلوا بأولادهم إلى الحرب..

ويستند بكوعه على متكأ، ويفرد ساقيه.

– إنهم يقتطعون من أكبادهم..

لمس اليمنى قدمه فثني ساقه.

- والله ما بخلو بها في اليمن.

حدق فيه طويلاً.

- ولا في غيره.. وذلك هو الداء..

رأيت نتيجة ذلك في القنصلية.. يا الله.. زحام لم أره من قبل، وتدافع وصل حد التشابك.. الرجل والنساء في خلطة تجلب الحياء..

ضحك اليمنى في صخب غامزاً بعينه.

- لو رأتها الجماعة... لأغلقوها..

كانت الصفوف طويلة حتى تعجز عن عدها... كل هذا من أجـــل اجراء المقابلة ليفوز من كتب له الخروج من النفق.. بعقد يعمل به...

نادى على القهوجي.. أتى بدلة القهوة... ونصحه أن يجرب شربها.

- تقوي البدن.. ستتعود عليها..

كان قد تذوقها مع منصور، لم يستسغها.. لكنه تناولها.. خشـــي أن يغضب.

تدري!! وجهه مسطح، يطوخ بذراعه ردا لتحية عابرة..

تدري أن الخيوط ظلت مقطوعة زمناً.. حتى إذا تغـــيرت الرئاســـة، انفتحت الأمور قليلاً.. وبدا الخيلج يوارب أبوابه ليمر المصريون.. إنـــه تخفيف عن الضغط والمعاناة.

يمد يده، ويحسو حسوة تكاد لا تبين..

– أتصور أنه تدعيم للنظام الجديد...

وهو يتابعه حرص ألا ينازله في الحديث.. أو تأخذه الحـــدة فيلـــزم جانب الدفاع.. عاهد نفسه ألا يخـــوض في جـــدل حـــول الأنظمـــة، والسياسات. لن يغير نهجه، ظل نائباً عن هذا المتزلق الخطر.. وعليـــه أن يواصل.

لم يبالغ كثيراً وهو يتحدث عن حالة الألم التي أصابت المصريين بعـــد إعلان نتيجة المقابلة والترشيح للعمل.. الانفعـــالات تعلـــو وتتـــداخل، وتتغاير درجاتها حتى لتصنع لوحة قاتمة اللون منبهمة الخطوط.. صـــياح وغضب، فرحة وسكون، بكاء ودمدمة.. وذهـــول وصـــيحان.. شـــد جذعه، واستقام..

– ألهذه الدرجة.. يكون التعاقد مهماً!

أعاد فثني ساقه اليمنى، انحسر الثوب كثيراً، فبدت جلـــدة القـــدم جافة، متشققة.. وحسا حسوة طويلة.. وقال في تنهيدة...

– غيرك تمنى لو يدفع من عمره للفوز بعقد..

استنزفت الظروف القوى الكامنة في النفوس حتى كادت تفرغها من القيمة.. وغاصت سهام الحرب في القلوب، وتوالت الأزمـــات، وفقـــد الناس توازنهم وقدرتهم علـــى المواجهـــة.. والمســـاءلة، فاستســـلموا...

وعكست الملامح ما تمور بها الصدور.. انبهم الأفق، والعدو يعربد على الضفاف.. والداخل يغلي، والعيون معلقة بالأفق.. علّ نجماً لامعاً يبزغ.

لم يفتك ما كنت تراه من ممارسات محزنة وأنت تتردد على القنصلية.. كنت تبرر ما تراه بأن الحاجة تقهر العقل أحياناً.. وأن الخروج في صالح الدولة... دعم مالي، وتخفيف لضغوط الداخل.. كنت تصطحبه– حيناً– في ذهابك... وها أنت تراه يرمقك من خلف النظارة بزجاجها السميك.. تتقلص ملامحه كأنها تتعارك وهو يجذب النظارة ويلقي بها على الأوراق.. وتندهش من حركة الأصابع وهي تضغط الجبهة، وتخلف أثراً محمراً كالجرح.. يضع رأسه بين يديه، ويحدق في الورقة الكالحة.

يخدعك منظره، وجبهته المدببة، ورأسه الصلعاء وحاجبه الكثيف، وجسده الضئيل.. لكنه كان إذا انفعل أغلق الزملاء الباب، وسدوا المنافذ وأتوا بالماء، يعالجون به رجفته التي تشمله كما الحمى.. يمسح الزبد.. ويمسد الوجه.. والرقبة.. وجلدة الرأس...

تدرك أنه يعاني أزمة مالية... أسرته كبيرة، ودخله قليل، وزوجته لا تعمل.. وأمية.. وكنت تلمح خجله وهو يتحدث عنها.. كان حظه من الدروس قليلاً.. والزملاء – في ظل المنافسة– تركوه.. وحيداً...

جاءك زميل وأسر لك بالحكاية..

ظلت تضحك.. حتى دمعت عيناك.. وهو يسرد لك..

كان قد اقتنص درسا في مادته التجارية.. وكأنهم اســتكثروه عليــه فعلق زميل.. ضاحكاً.

– لابد أنك ستدرس للأم.

لم يفتك وهج الغضب في عينيه، ولم يخدعك تجهمه.. اســتللت منــه حزناً دفيناً، يترقرق تحت جلده الظاهر.. فالبنات يســعين إلى المــدرس الصغير، أو الوسيم، أو العازب.. ملامحه أبعدته كثيراً...

أخبرك الزميل بأنه حدد قيمة الساعة بثلاثة جنيهات، وأنه يتعــاطى الأجر أولاً بأول..

وضحكت وهي يحكي الموقف.. خشيت منه فغادرت المكان.. جــاء موعده في مناسبة خاصة.. ازدحم المكان بالأهل، والأقارب والجــيران.. وخاف لدرجة العرب ألا يتمكن من إعطاء الدرس.. فلا يحصــل علــى الأجر..

غاص قلبه، والبيت مفروش بالبشر.. والجنيهــات الثلاثــة تفــي.. بمتطلبات طارئة.. وامرأته شيعته بنظرة خدشت رجولته...

لمت نفسك فيما بعد وأنت تستمرئ سرد زميلك.. بفكاهته الدامعة، وصخبه الزاعق.. أقبل عليك وعيناه تسحان بالدموع. وهو عاجز عــن ضبط نفسه..

– تصور.. طلب من البنت– تلميذته– أن يعطيها الدرس على بسطة السلم.

ومع أنك لم تملك نفسك من مجاراته.. إلا أنك ظللت يومك حزيناً. حين علمت أن البنت عرضت عليه أجر الحصة.. فقبله.. وهو يتمنى لو قبضت روحه ساعتها.. تستدعي الموقف.. وهو يرنو إليك... والدخان يتطاير، واليمنى يداعبه ويشاطره.. وزميلك يحدق فيك.. ونظارته السميكة تتأرجح في يده.. ويصرخ فجأة. بأن لحظتها أن ألماً عميقاً يسكن الوجه والعين والملامح.. وتطلع إلى السقف كأنما يهرب منك، ويخشى عليك منه...

– كنت جديراً بالتعاقد منك..

يلملم أوراقه في عجلة ويتمتم وهو يواجهك في صوت عال.

– الله يصر على تعذيبي..

خلقة دميمة.. ورزق شحيح.

***

ينقبض الصدر وهو ينسلخ من نظرته..

ويراه يصب عينه عليه.. ويؤرجح الفنجان بين إصبعيه. فيضيق صدره، ويدرك أنه يقصد إيلامه..

لم يدر كيف علا صوته وهو يمسك عينيه.

– الحاجة متبادلة...

فجأة يقتحم منصور المشهد في حركة زاعقة تعلن عنه..

أزاح.. همّا تسرب إليه.. وحرجا كاد يغلبه... بش الرجــل لــه.. وأجلسه بجانبه.

وقال منصور في بشاشة وود.. وهو يتطلع إليه..

– يوصيك به.. وكيل الإدارة..

ثم ضحك غامسا المبسم في فمه.

***

كانت العربة الجيب تسير في بطء ورجاتها تحدث ألما في الأبدان..

تمتد الأيدي فتقبض في قوة على ما تطوله.. المدق الذي تعبره محاطــا بتلال رملية متكلسة طالها نشع البحر.. وملوحته.. خلا مــن الاســتواء فلاح من بعيد كثعبان صحراوي يتلوى على نفسه، يتكــور وينبســط فتختار متى تستدير أو تتوقف.

ترتطم العربة، وتنزلق، تغوص وتندفع.. تتطاير الرمال الســاخنة.. فتلسع الجلود والعيون، يتفادى السائق حفرة معتمــة فتــرتج العربــة وتنخطف الأرواح.. تعلو الأصوات محتجة.. والولد الصــغير يبكــي في رجة مفاجئة.. وهو صامت لا يجيب، يحبك غترته ويرســل بصــره إلى الطريق ممعناً.

لم يلتفت إلى الصغير، وهو يعابثه.. ولم يرد أصابعه النحيلة وهي تتحسس مقود العربة.. يطل بعينيه عليه ثم ينكمس في صدر أبيه دافساً رأسه في شعره الكثيف.

بدا الأب ممتلئاً، والأم ممتلئة.. لم تخف امتعاضها وهي تمسك بالصغير في كل رجة.. البدن يرتج، والشعر يتطاير.. لم تكن قد لبست العباءة بعد.. ولم تكن قد سترت شعرها، فنالها من العيون ما كدّرها.

ابتعد السائق بالعربة، ودخل إلى السهل الرملي الممتد، علا حتى لامس جانب التل ثم استدار ونزل فلاح البحر ساكناً، والطيور الشحيحة تحوم.. ثم تهوى.

يجابهك الفضاء الأصفر، وتنسال الحرارة انسيال موجة مراوغة.. والقيظ يحتويك.. تأخذك الخيالات المرتعشة فتراها أشكالا تتجسد. تقطع عليك الرؤية، وتتبدى لك وجوها، وأحصنة، أظلافا وذيولاً، اجساماً، وأدمغة.. وتروح تمعن النظر، من يدري فقد تمسك به. يشاغلك حتى إذا اقتربت فر كالسراب.. فيأخذك شعور باللاجدوى، وأنك عاجز أمام انفساح كوني يحتويك بصفرته وأشباحه، وشمسه التي تذيب الحديد.. كنت آمناً وساكناً كالوداعة، أغواك قلبك فانصببت كالعاصفة، تسربلت به واختفى قلبك.. ترنو إليك في ابتهال أن تأخذها معك.. وكنت تزهو، والوجه ينبسط، والعين تبتهج.. تناجيك آمره.. وهي ترى قلبك على وجهك.. دثرني بدمك.. وأنت ترى الممتلئة تذيب ولدها في جلدها..

تجالسك البنت التي شقت الجلد وتسربت دماً.. تدثرها بدمك وتستعطفها أن تكف عن ولوجك...

باغتته انحدارة مفاجئة.. فقبض في قوة على مقعده..

لم تمنع التلال وجه الشمس، ولا حجبت لظاها.. لم تستدر الشمس بعد فاختار السائق براحاً رملياً، تناثرت فيه أشجار من الأسل، ونباتات صحراوية في حضن التل.. الفروع شحيحة الورق تلقي بظل رفع كالرمح لا يمنع القيظ.. لكنه ظل على كل حال.. وهو غاية المنى في صحراء لا ينقطع لهيبها.

توقفت السيارة على جرف كثيب رملي...

امتدت الأيادي بملاءة قطنية داكنة، وربطت أطرافها بين فروع الشجر، فسمحت بمساحة من الظل أشاعتت بعضا من البهجة واتاحت راحة مختلسة لأبدان متعبة.

كان المسافرون خليطاً من المتعاقدين وأبناء البلاد.. قلّ الحديث بينهم أثناء السفر، لكنهم تقاربوا في جلستهم.

لم يكن بوسعه فعل شيء، فأسند ظهره إلى جذع شجرة خشنة القشرة، وراحت عيناه ترنوان في كسل كالخدر.

تنحى الرجل الممتلئ قليلاً.. وفرش سجادة صغيرة جلست عليها امرأته. كساها ثوبها الواسع فاحتجبت. أدخل يده في الحقيبة وأخرج

منديلا زهري اللون.. فردته وأدارت ظهرا وفرشته على رأسها وانسدل حتى الصدر فاستتر الصغير وهو يرضع.

أخرج السائق «جيرك» الماء، وفتح غطاء العربة وصب قليلاً..

واستدار ثم أخرج كرتونة صغيرة، فتحها ورص الشاي، والسكر، والأكواب.. وأدار رأسه كأنه يتلفت.

لم تفته حركته وهو يقتعد حجراً رملياً، الوحيد من الركاب الثمانية الذي يرتدي العقال، فكه وعلقه بفرع شجرة وعاود النظر ثم نهض، وضع طرف ثوبه في تكة سراويله الطويل ونتش فرعين جافين، هشمهما، وحفر حفرة صغيرة ورص على فوهتها حجرين.. وراح يشعل النار.. ويضع كوز الشاي..

تخفف رجل التعليم من ثوبه. وكشف سراويله الأبيض المطرز عن ساق ناشفة، معتمة اللون. ظل يدخن وحوله اثنان لا يكفان عن الحديث، وهو يرمقهما ويبتسم.. توجس منه..

أخذته الرمال المتحركة كالموج وسار قليلاً.. اعتلى كثيبا، وشاهد الرمل المبسوط بدرجاته، وتعجب كيف تصنع الرياح الخفيفة من حصيرة الرمل شكلاً جميلاً ومدهشاً.

ثمة خيمات متناثرة.. قرب بطن التل، وخيمة ممتدة أرخت حوائطها، ولم يعد منها غير سقف يسترها. وغنمات هاجعات تحت أشجار الأسل، وفي جنبات التل.

تخفف السائق من ملابسه، وبدا سراويله هـــادلاً، ولحيتـــه تحتجـــز قطرات مياه شحيحة، وجدائل شعره تتلوى مغبرة، وسمانة ساقة ككدمـــة محتقنة، يلوك السواك في حنية الفم.. ويبتسم..

تقدم إليه وناوله كوب الشاي.. رآه ينشغل بالخيمة المفتوحة فقال في عجلة..

– المرة القادمة لن تراهم.

لاحظ عليه دهشة ممزوجة بالحزن..

– لا تندهش.. حياقم ترحال.

تناول كوب الشاي وامتن له كثيراً.

– لست وحدك!

نظر إليه، وتعجب أن يظل صامتاً.. كأنه في غفوة...

– تتأثر سريعاً.

وقدم له قطعة من خبز التميس..

– كل من سافروا معي دمعت عيونهم.

وهو يستدير نحو غطاء العربة، ابتسم، وغمز بعينه.

– لست وحدك..

وحين رفع السائق يده في إشارة إلى البعيد، رأى بدويا يخب في مشيته، الصديري مفتوح، والغترة ملفوفة على الرأس كالعمامة.. اقتربا، وتصافحا.. أخذه إلى العربة وأعطاه كرتونة ممتلئة بأغراض كثيرة..

– كل ما طلبت «الخالة»...

ربت بكفه على صدره.

– تدعوك.. لشرب القهوة بالهيل العتيق.

أشار إلى رجل التعليم ثم إلى الآخرين..

– متعجلون..

ثم ضحك وهو ينظر إليه واقفا، وصامتاً.

– «البذورة».. ينتظرونهم.

– ننتظرك في عودتك..

تموج التلال في عينيه، ويتغضن وجه الصحراء في فضاء رملي ساخن يقبض على الروح. هجع كل شيء.. وراحت الهوام تندس في الجحور، وتحت الصخور، وفي شقوق الرمل... وتحت قشرته الرطبة.. ويظل للبحر في احتجابه خلف الكثبان حضوره في هبات شحيحة، ورائحة تحمل عطنا ويوداً ورطوبة..

فجأة صرخت المرأة الممتلئة. نترت جسدها في قوة. جذبت الصغير وقفزت، ظلت تدور، وتلف، ثم توقفت وعيناها تدمعان.. وصدرها يرتج. راح زوجها يطمئنها ويستجديها الصمت والهدوء..

تجمع الرجال في هبة واحدة.. لمحة السائق صغيراً داكناً.. يتسحب في الرمال كما لو كان يسبح في لجة من الماء. لم يبد منه إلا حركة التلوي، والغبار الخفيف الذي يعلوه، وانسيابات الرمل المصاحبة. أسرع في عدوة محسوبة وانتظر، سكب عليه ماء وحدق فيه، غرس فرع شوك مدببا وأفسح ساقيه.. حتى إذا لامس العصا وشعر بالبلولة توقف ورفع رأساً.. صغيرة مسودة وعيناه ضيقتان لامعتان، وجلده أصفر مرقش، ولسانه ناعم كالإبرة.. يلوح ويختفي.. ثم تسحب حتى اعتلى الفرع وسكن.

لم يكف رجل التعليم عن همهمته وتحديقه، ولم يغر وقفته أو يبدل ساقيه. رفع يده فراحت عين الثعبان تتابعها.. وانقضت الأصابع على رأسه وضغطت، تمدد الثعبان على نفسه.. وفتح فمه..

برز اللسان والفك.. أمعن النظر... ثم استقام جذعه وتنفس في عمق وتمتم..

– لا يؤذي..

خرجوا عن الصمت الراجف وصوبوا العيون.

– ليس من النوع السام..

وحين حاولوا قتله منعهم. لم يعلق على احتجاج المرأة وهي تدمدم أن إطلاقه إساءة لها وخطر على غيرها.. رنا إلى الممتلـــئ، وربـــت علـــى صغيره..

– دعوه لمصيره..

لم تفته حركة السائق المعترضة، ولا صاحب العقال في بصقته، وقال في نبرة عالية.

– لا تحسبوه آمنا.. هذا الذي أخافنا.

ردد البعض في تفكه موقع.. هذا الذي أخافنا..

وغاصت عينه في عين هذا الذي خاف وانتحى ركنا بعيدا ســـاهما، وشاردا.

– في الصحراء إن فقدت سلاحك خاصمك الأمان.

***

لاحت الشعاعات كأنها أسلاك صفراء منفلتة، وعيناك تـــدوران في الفضاء المرصود بقنن الجبال النائية كأنها خط معتم على حدود الأفـــق. وتتعجب.. كيف تستمر الحرارة لاهبة وكاوية وأكتوبر ينسحب آفـــلاً. وكيف لم تأبه لفزعة الرجال، وظللت مكانك على كثيبك الرملي بخبزك اللدن وشايك الكهرمان.

غابت عنك الأذن فلم تسمع إلا «وشيشاً»، يذكرك بخفيف الشجر حين يكتنز بالورق.

وأنت مبهور بالفضاء ومستمع إلى وشيشك المخضـــر تجلـــي لـــك فأدمنت الرنو غافلاً.. فردت كفيك، واستقبلتها في راحتك «أحبك».

تكاد المياه تصطفق، وتعلو حتى تلامسك، وأنت قابض عليها والمقهى الممتد على ضفاف النيل يعبق برائحة وردات متناثرة...

وقلبك يخطفك، فتدفعه ضاغطا كي لا يفضحك.. ولسانك لابد لا يطاوعك..

وأنت تشرح قصائد الغزل ظللت تسرد مفردات الحب، والعشـــق والجوى والوجد، والنوى، وتسرف في المعنى، وترنو إلى المغـــزى.. فلـــم يفتك الوجه المرتعش، ولا الوهج الذي خطف بصرك فأعماك.. وظللـــن ينتظرن.

لم اكتشفن أنك لم تعرف قلق المحب، وأنك بـــلا تجربـــة لانصـــرفن عنك.. وفقأن عينك المحدقة.. مع أن قلبك طري كقلوب المحبين..

لم تحرقك التجربة فبدوت في هواك كالمحايد..

تداوي شعورك في صدرك، ومع أنك خير من يتذوق عذاب الشعراء وحبهم.. أيمنعك الحياء.. أم ترى البوح ضعفا!! فك نفســـك، واخلـــع

عنك طلسمها.. وبح.. هل تطوي السماء نجومها إذا قلت.. أحبـــك.. أتظن أن الله خلق القلب عبثاً؟

تتلفت كأنك تخشى أن تكون قد طارت وحومت، والقلوب مبثوثة على الأرائك، وفوق المناضد – خرجت من صدورها– وزخات الـــدماء الصاهدة تحيط بك..

وأنت تحب، وتخجل، أفي الحب ملام!!

وكأنما تعاني من ندبة مدممة.. فتحت قلبك وصحت.

– وأنا أحبك.

وانتفضت – أمامك– قائمة. فردت ذراعيها.. كأنما تريد للصـــوت المنفلت منك أن يعود إليك.. تحوطه بدفئك. وبكت وهي همس في تمتمة كالصلاة.

– هي.. تعويذتي التي تحرسك..

هل وصلك الحب فداريت دمعة تقف على حافة العين!!

وهل آنسك فأنساك ما حدث!!

***

لبدت المرأة الممتلئة بجوار زوجها وعكس وجهها غضـــبا مكتومـــا، نحت الصغير عن صدرها وأعطته لأبيه وفردت منديلها وشدت به شعرها

وعقدته. لم تخل عيناها من نظرة التأنيب.. لم تنس أبداً احتجاجها على السفر معه. كيف تترك عملها وأهلها وتلحق به في بلدة جنوبية متروية وبعيدة عن الحياة.. من يضاهي الإسكندرية بأية مدينة في العالم؟

لكنه رهن السفر بمصاحبتها.. فعليها أن تكابد مثلما يفعل، وأن تؤانسه.

ولم تترك أمها ذريعة للسفر لم تستخدمها، فهي كبرت..

ولم تعد قادرة على خدمة الأبناء وأولادهم، وأنت في الحقيقة أولى بزوجك، «وأنه لن ينسي لك صحبتك له».. واحمدي الله أنه راعب، غيره يمكن «أن يترك الجمل بما حلم.. ويرمي كل شهر عدداً من الريالات.. ويراكم مرة في العام كأنه غريب، اسمعي نصيحتي.. الرجل في الغربة لا يحتاج لشيء قدر احتياجه لامرأته تؤنسه تؤانسه..».

– أبعدي الشيطان.. وبخري نفسك..

تراه يحوط الولد بذراعه المشعرة. عيناه ساهمتان في البعيد. لو نفذ اقتراحها لاستراحوا جميعاً.. شهر واحد وتلحق به...

أمسكت فرعا جافا ونكتت به الرمال، مدت كفها وشدت قميص الولد.. هشت الذباب. رفعه إليه فوسدته فخذها..

– قلت لك اسبقني!

هومت، وتقلص وجهها وخرج الكلام مدغوما كأنها تحادث نفسها.

وحطت عيناه على الشفتين وأدرك أن الألم مكتوم.. لقد سعت معه بكل الطرق للبحث عن عقد.. تعلم أن مدرس التربية الرياضية تبور سوقه في الخليج.. وهي التي تسعى إلى نقله جديدة تنعم فيها بالملابس الأنيقة.. والسكن الواسع.. والسيارة إن امتد العقد.. تدفعني دفعاً.. ثم تتخلى!! كانت تملأها زهواً!!

– تعرفين أني لا أستغني عنك..

رمشت عيناها، وجاءها الدمع طائعاً، أحنت وجهها على كفها وارتجفت.

– كان من الأفضل لو تأخرت قليلاً.

– كان من الأفضل لو تأخرت قليلاً.

– ستمرين على هذا الطريق نفسه.. وتجلسين هذه الجلسة.

وهي تبعد ذبابة صحراوية ملحة.

– كنت دبرت نفسك.

وتلفتت.. صادت وجهه الباهت، وجلسته المقعية، ورأت الرجال يرتجون حول رجل التعليم، والسائق في طريقه ناحيتهم.. وتعجبت من هذا المصري الذي ينأي بعيداً.. ولم يكلف نفسه أن يطمئن عليهم.. وتمتمت كالمغيبة.

– قل لي.. أين نبيت ليلتنا؟

يعلم أن الطريق ممتد، وأن الفجر زمن الوصول، وصديقه ينتظـــر.. كيف لم تحمد الله وهي تعلم أن لي صديقا بالبلدة. ماذا يفعل من ليس له صديق يعينه أو يدبر أمره.. في بلدة كهذه!

– لي صديق دبر كل شيء.

حدقت فيه، ثم ضيقت عينيها، ولوت بوزها، ونظرت – مؤنبة– إلى التلا، والرمال، والغنمات الرامحة... و.. تمتمت.

– كل شيء!!

شيء ما كدره، وأرجف بدنه، وهو يرنو في إطالة تجاهها ثم ثقيل وقع في المسافة الضيقة بينهما فاتســعت وتباعــد الكتفــان.. صــاد غــبرة «صحراوية» طالت تدويرة الوجة الأبيض فأعتمــه. وأحزنــه أن يــرى الرجل – على امتلاءته– منكفئا برأســه إلى الأرض وعينــاه شــاردتان تحدقان في الرمال الصفراء وهي تنسلت من فرجات أصــابعه كــالخيوط الواهية..

ونهض..

تراقصت أمامه الوجوه، وتذكر عذابات البشــر في الســفارة، وفي الطوابير الطويلة بطول الليل وثقله، والإهانات التي تلحــق بــالجميع.. وتساءل – في حزن غاضب– ما الذي يدفع هؤلاء المعذبين إلى الترحال!

ولم يطردهم وطنهم بكل هذه القسوة، حتى ليبدو وكن يريد الـتخلص منهم!

استقام جذعه، وطوخ بذراعيه، وهبط..

شغله حزن المرأة ولهفتها على صغيرها.

وهو يخب في مشيته وعيناه لا تفلتـان وجـه الرجـل المنكفـئ.. تذكرها.. ما الذي يمكن أن تفعله لو صادفت الموقف نفسـه؟ أتضـيق بالمكان الذي يأكل الفرحة، ويمتص الرواء! أيمكن أن تفعلـها في كـبر الأنثى وتخيره بينها وبين سفرته! أم.. تدثره بشعرها الليلي المنسـدل؟.. وابتسم.. وراحت بسمته الرائفة تفيض على وجهـه وتطـول الأفـرع الكليلة وتمشي على وجه الرمل فتشكله أهله مقمرة..

واصطاده السائق متلبسا فاهتاج، هز يديه وصفق في إيقاع بـدوي، وكتم الرمل دقات قدمه الموقعة.. دار بجسده دورات ملتفة حتى شـال الهواء «حوكته». بدت سعادته حقيقية، وعكس وجهه ودا خالصا.. هو وحده يخفف عليه ارتباكه وحيرته.. ائتس له وهو يلتزمه محتضنا في موقف الجنوب «ومنصور» يأتمنه عليه ويوصيه خيراً.

– النبي تبسم.

واستدارت الرءوس، وضجت الصحبة بالصخب، وفز الأنيق بعقاله حاجلاً.

– النبي تبسم.. النبي تبسم.

شمله حياء حقيقي.. وغزاه ضعف يجلب البكاء...

لوح بيديه، فاردا منديله في بهجة نادرة.

مال تجاه الرجل وامرأته..

ألقى التحية فأدارت المرأة وجهها، وحين رأته، أعادته ممتعضة.

علا زوجها برأسه وردّ التحية.

جلس القرفصاء على نتوء رملي متكلس.

– كيف حال ولدك؟

ورنا إليه في حذر. فضل الصمت فالأمر انتهي، لكن عينيه وشيتا بلوم خفي.

– كنت غائبا.. فاعذرني..

بصّت إليه في عجب وقلبت شفتيها في زمة طويلة يمين الفم.. وهوّمت. وضحك الزوج قائلاً من ريبة.

– حمدا لله على السلامة..

وبركن الفم المعووج قالت...

– وكيف حالهم!

أدرك كم هي متألمة من موقفه..

- من؟

- من كنت عندهم!

أسرع الزوج بالحديث ليبعد قصد الإساءة.

- أول سفر لك!

- وآخر سفر.

ضغط على يده متودداً.

- هل زرت الواحات؟

زوى ما بين الحاجبين، ورمق الزوجة. خشي أن يجيب فنفي الأمر برأسه.

- ولا سيناء!

أحنى رأسه وشعر بخجل، واعترف بخطئه، فهو لم يزر معالم الجنوب، ولا مشي في دروب الصحراء القريبة منه.. كان تنقله بين قريته والقاهرة.. وتصور أن هذا يكفيه..

- الأمر لا يختلف كثيراً عن صحراء بلدك..

وحدثه عن رحلاته الكثيرة، وفرق الكشافة التي صاحبها، ومعسكرات الشباب التي أقامها.. والصيد في صحراء الفيوم.. ومرسى مطروح.. وتوقف فجأة ولم يسترسل بعد أن رأى نظرة التأنيب من زوجته.

– سعيد... مدرس تربية رياضية.

– صابر... لغة عربية.

وحل صمت ساكن بينهما هزة فجأة صوت السائق وهو يدعوهم إلى تلبية دعوة البدوي.. فأحس براحة أنقذته من حرج مخز.

***

ولجت المرأة بصغيرها فتحة الخباء.. واعتبرت الأمر كأنه نجدة سماوية، فالصغير يحتاج إلى تجهيز رضعة، وهي ضاقت بما تحوي، وتتمنى لو فردت جسمها المفكك.

استقبلتها البدوية بجسدها النحيل وثوبها الزاهي.. وهمهمت «يا هلا.. يا هلا بالزين» التزمتها في بشر وتابعت «حبايب إي والله» وراحت تداعب الصغير.

أومأت إلى فتاتين فنهضتا، وحييتا الزائرة.

طالبتهما بجرش الهيل، وغلي الماء، وإحضار اللبن الصناعي، وإشعال الفرن.. نبهتها إلى أن معها طعام الولد، وهو أكل خاص به. أشـــارت إلى حافة باب محجوب بستارة ذات شراشيب ملونة وعريضة.

– هاتي «الوليد» وتريحي.

وتفتح الصندوق، وتخرج منه مناشف صغير. تجلـــس الولـــد علـــى أريكة، وتضع في حجره بسكويتا بالتمر.. ثم شالت يدها زجاجة هبـــت رائحتها فملأت الخباء، وطبقا مسطحا من الخوص، وكبشت حفانين من التمر، واختارت قنينة صغيرة تحتفظ فيها بخلطة نافذة من زيـــت العنـــبر والصندل، وركنت بجوار مرأة صغيرة ومكحلة مرودها صغيرة ولامع.

أثار انتباهها وهي ترضع الصغير، الأكلمة الوبرية الجميلة، وأكيـــاس كالحقائب موشاة بخرزات وقواقع ملونة، وعقـــود بأشـــكال وأصـــباغ متداخلة.. وأساور بيضاء رفيعة.

وهي تقدم لها القهوة بالتمر قالت في مودة:

– نغزل الوبر ونبيعه ملابس وأغطية للرأس والصدر.

ولوحت البدوية بعقد خطف عين المرأة.

– كهرمان صافي جميل.

ابتسمت وقالت في نبرة خفيفة وغمزة عين مكحولة.

– يبعد الشر ويحمي من الحسد.

***

ظل الزوج – بامتلائه– قائماً قريباً من باب الخباء، حتى نبهه البدوي إلى أنها مع أهله في أمان، فاقتعد حشية تقطعت خيوطها من الأجنـــاب، وفرد ساقيه وتنهد في نفس طويل وراحت عيناه تنطبقان في خدر مزاحم.

كان قد هل على المكان عدد من الشباب قـــدموا مـــن خيـــامهم المتناثرة.. جاءت جلسة أحدهم بجوار «صابر».. وحين علم أنه موجـــه للعمل بمعهد المعلمين بالبلدة الساحلية الصغيرة. حتى استدار كلية إليـــه، وبانت عليه علامات الفرحة وقال في اندفاعة:

– قبلوا أوراقي به.. إيش تدرس.

– لغة عربية.

ونهض سريعاً، قدم الشاهي، وحبات التمر..

– الطريق طويل!!

دفس تمره ولاكها..

– لنا «عوايل» هناك...

وأخذه الخلاء، وكثبان الرمل، والـــنخلات الواطئـــة، والنغمـــات الشاردة والفتي يحادثه عن الخيمة/ المدرسة، والمدرس المقيم الذي يأتي مع بدء العام ويمضي في نهايته. يرحل مع الراحلين أو تمتد إقامته..

– نبحث عن الماء والكلأ.. فإن وجدناه حططنا الرحـــال والمعلـــم معنا...

وتلفت إلى السائق وهو في طريقه إلى السيارة.. وابتسم...

– الحكومة.. جزاها الله كل خير.. ما قصرت.

وارتشف «صابر» رشفة طويلة وعينه ترمقه..

– كأنكم رهائن!

جلس الفتى القرفصاء وفرد ذراعيه على ركبتيه وقال في زهو..

– الصحراء... بيتنا.. والبدوي حر حرية الصحراء...

كريم إلى أقصى حد.. وقاس إلى أقصى حد..

ونتر جسده وصوّب بصره إلى العربة..

كان السائق قد طوى ملاءته، وجمع أكوابه، وأغلـــق «الكرتونـــة» وأحكم غطاء العربة،، أدارها.. ومضى حذراً تجاه الخيمة.. وقبل أن يصل انفلق الرمل فلقتين وطوى العجلات وأطبق عليها.. نزل، وتســـاءل في غضبة عصبية،كيف تجاهل مراوغة الرمل وخداعه!

استدار الفتى.. أخبرهم أن العربة عزت، وأن الرمـــل احتجـــزهم فاستسلموا في تهويمه، صم سرعان ما ضجوا، طالبين الشاهي.. وحجـــر الجيراك.

***

نظر رجل التعليم إلى ركن قصي. قماش الخيمة كالح وخشـــن بـــه رقعتان من الجلود.. ملتصق بقائم أجرد معقود. وبجواره حامـــل عليـــه «اتريك» منطفئ وحصيرتان ملمومتان، وحـــبلان مشـــدودان.. يتـــدلى طرفاهما فيلامسان صندوقا صغيراً يلمع.

حرك رأسه وعقد حاجبيه ومد كفه كمن يتحقق من شيء. وانفردت أصابعه في حركة تشي بدهشة جارت على ملامحـــه، وراحـــت شـــفتاه تتقلصان في استنكار.

وضحك فجأة وهو يشير إلى «برّادة» الغاز.

– كنا نحدد الزمان بالنجوم.

ونبرد الماء بالريح.

ودبّ أصابعه في طبق الأرز الواسع، وجمعه بكفة. كومة وضـــغطه في باطن الكف حتى بدا كإصبع غليظ.. رفع اليد ودفعه بـــرأس إبهامـــه إلى الفم.. ظلت يده اليسرى مدلاة على فخذه الأيسر المستريح، وهو ينثـــر حبيبات الأرز العالقة.

– الآن زاحمتنا الساعا، والأتاريك والبرادات.

علق البدوي المضيف في نبرة فخر متواضع وهو يمسك بدورق مياه.

– ما تغلى عليك... حلالك والله!..

امتدت أصابعه إلى قطع اللحم، ونتش نسائر مدهنة وراح يمضغها في صوت مسموع وحبات الأرز تنفلت من فمه.

أفلح «سعيد» في تناوله طعامه بنفس الطريقة التي رآها، وبذات الجلسة. الساق اليمنى قائمة، واليسرى مضمومة، ومستلقية على الأرض.. وكفه تقبض وتضع أصابع الأرز. وعيناه تتابعان حركة الأيدي.

عجز صابر عن الأكل. فاستخدام ملعقة بلاستيكية، وظل ينكت بها الطبق، ويلتهم الأرز. كان عاجزا عن استخلاص نسائر اللحم، فامتدت الأصابع واقتطعت قطعا صغيرة، ووضعتها أمامه.

سال الدهن على الأفواه وكسى الأيدي، ولم يجله – فيما بعد– سوى الفرك بالرمل قبل الغسيل.

مسك البدوي ببراد الشاهي، وحمل أحد الفتية صينية علها أكوابا صغيرة.. وراحا يدوران على الحاضرين.. تناثرت المقاعد، ومدوا سيقانهم واتكئوا.

– يا رجال..

التفت صاحب العقال الوحيد، فابتسموا.. ورقرقت أصواهم.

رفع رجل التعليم إبهامه ومس به شفتيه، قفز ناهضا وبدأ يعد الأدخنة، رمقه في زهو وهو يلتقط «الدخن» ويضع الجمرات، ويكبس الحجر، ويطمئن على مسرى التنفس، ويضبط مستوى المياه.

ومال إلى سعيد هامساً.

– ليس كالبدوي رجل..

أخرج بسمة علقت بشفتيه وهو يعلق.

– وأنت.. بدوي!

فرك أصابعه، ثم حكها في الكليم ودسها في حجره.

– من بلدة ساحلية.. أرضها سبخة، وأهلها أجناس شتى، لكن الصحراء تطويها.. فيدهمنا البدو كثيراً.

توقف قليلاً وهو يتعجل الدخان.

– وأنت من «وين»؟

رد سعيد وعيناه ترقدان على حافة الأفق البعيد.

– ساحلي.. من الإسكندرية.

– أوه.. زين والله...

تحدث عن محطات الطريق، وعن الخيام التي هي محطة انتظار، والبدو الذين تغيرت عاداتهم، وأصبحوا ينتظرون المسافرين، وخبثهم في تـــدبير الأغراض اللازمة للاستضافة مدفوعة الثمن.. لن تعـــدم في الصـــحراء، التوقف لأسباب كثيرة..

ويضغط على ركبته في قوة.

– قليلة هي اللحظات التي تتحول فيها الخيمة.

إلى مقهى تتردد فيها الحكايات.. لكنها لحظات ممتعة.

ونهض وصوته يعلو:

– كلّ على راحته..

جلس خارج الخيمة، واقتعد الرمل واتكأ. على فخذه. التقط المبسم وبدأ الدخان يتصاعد. علا صدره، وهو يكتم سعلة رجته. لاح جلـــده غامقاً، وغترته منسدلة على الكتفين فكشفت عن طاقية بيضاء موشـــاة بخيوط من القصب الأصفر كأنها أوراق خوص باهتة... وفودين غزاهمـــا الشيب.

وأشار إلى «صابر» فاقترب.. زاحمه الدخان ورائحة العرق فـــتقلص وجهه، وأخفى امتعاضه.. رمقة بركن عينه وأهمل ما رأى.

كانت الشمس ترسل ضوءها الساخن، ومن بعيد.. خطفت عينـــاه طيورا سوداء تحوّم ثم تنقض.

لوح بذراعه.. والتقط حجراً ورمي به.

حرك رأسه، وراحت شفتاه تنفردان وتنطبقان.. كالتمتمة، وبدا كأنما يحادث نفسه.. يرمقه والمبسم على حافة الفم، والصوت هسيس، وكأنه يحرص أن يصله الحديث بالكاد، فأمال «صابر» رأسه، وقلبه لا يزال متوجساً.

تحدث عن الجوارح وهي تنقض، والذئاب وهي تترصد، والنسور في قنن الجبال وهي تبني الأعشاش وتتعالى، والبغاث وهو يتدافع على الجيف، والحملا وهي تروغ.. والبشر حين يضيعون. والرياح حين تعصف فتقتلعك بخيامك، والرجال وهم يقفون على رأسك يبغون «حلالك».. أو يطلبون ثارات.

ومد يده والتقط حجراً كبس به الدخان.. ورنا إليه في إمعان كأنما يقصده.

الذين عاشوا ذلك كله ما كانوا يستطيعون الحياة دون المواجهة... والمغامرة.. فأنت لا تقوى على إزاحة شيء من أجل آخر.. الكل في واحد.. يتعايشون كأنهم عائلة.. منهم المتمرد، والقناص، ومنهم الوديع... والمراوغ، الحر، والعبد، كل ما في الصحراء ينادي بعضه بعضاً.. ويحذر بعضه من بعض.

توهج اللهب، وتطايرت ومضات متوهجة، في فرقعة متوالية سرعان ما انطفأت.. ذكرته بلهو الصغار في الأعياد، فانقبض وجهه وترجرجت عيناه.

رمقه وأهمله وشد نفسا طويلا وهو يتـــابع حـــديثا صـــاخبا بـــين «الشباب». واستدار بوجهه كله إليه. للمرة الأولى يتملى ملامح الوجه في استدارته المفاجئة، ويصطاد حنوا شفيفا يطل من العـــين ويســـري في رعشة خفيفة لتشمل الوجه.

أخذت الرمال أكباداً دافئة من الكبار والصغار.. ولم تقف الحيـــاة.. يبحثون عن نقطة الماء فرن وجدوها دقوا الخيام.. أو يداومون الرحيل..

قبض على فنجان صغير وانسكب سرسوب رفيع من الدلة وفاحت رائحة البن والهيل.. تذوق وابتسم.

خفقت عيناه وهو يطالعه، وتساءل: فيم كل هـــذا الحـــديث عـــن الصحراء ورجالها؟.. ولماذا آثره بهذه الجلسة التي تكشف عـــن حـــس دافئ!

ولأول مرة يراه محدقا بالكامل في وجهه كله كأنه يتفحصه..

– الحياة شديدة القسوة وجافة.

والإبقاء عليها هدف مقيم.

وشغفه الحنين، وأخذه إلى «ربعه» البعيد في كنف الخضرة، والمـــاء، والسحن المتعبة والأهل المكدودين.

وانتظر أن يتم عبارته، أبقى على هدوئه، وظل واعيا لالتماعة عينه..

– نقيم الرحلات كثيرا إليها...

أن تكون طليقا مع الفضاء الرحب متعة كبيرة..

وابتسم في صفاء البدوي الساكن في خيمته..

– من لا يواجه الصعب.. لا ينعم بالسهل.

تنصت إليه، يستميلك حديثه، عباراته تشي بحكمة «من لا يعـــرف الصعب لا ينعم بالسهل».. وأنت تنظر إليه أثناء كلامه تدرك أنه غـــير ساذج أو عييّ.. لديه قدر من التأمل، وحسن الإدراك، ولعـــل فراســـته جعلته يستفيض، ويؤثرك بحديثه عن الصحراء وقسوتها. وربما فضـــحتك حالتك، فلم يغضب كما غضبت البدينة، بل حاول أن يقتـــرب منـــك، ويتقرب منك، ويتعرف عليك، وأنت المتوجس دائماً.. تأخـــذك الحالـــة فتبتعد. يظنونك عزوفا عنهم، أو متعاليا عليهم.. مع أنك تحرص علـــى تجنب مثل هذه المواقف، وتسعى إلى تصحيح ما يأخذونه عليك.. وتعجز كثيرا. وأنت تعي ذلك.. فالحاجز يقف بينك وبينهم، يعكـــر المســـافة، ويؤلب الشعور، مع أنك تتمنى – في الحقيقة– لو ذبت فيهم ووزعـــت عليهم ما تنوء به.

ما الذي أخذك منهم وجعلك واحداً!!

حين جاءتك خالتك ظهراً، كنت تلهو على سطح الدار، وتلعب مع ولدها الصغير. كنت لا تزال في البدء، ولم تدخل مدرسة بعـد، وأمـك الجميلة، موردة الخدود، خضراء العين ترقد مريضة.. ولما كنت تـدخل عليها، وتقترب منا يتلألأت وجهها كالبدر في طلعته. وتبتعد عنه الغمامة المعتمة.

وتأخذك إلى صدرها، تضغط عليك، تود لو تدخلك بطنها وتغلـق عليك، ثم تخيط جلدها. تمد بصرك إلى والدك لعله يخلصك، ويحررك من دفئها الساخن. وحين يمد يده ويأخذك تسبل عينيهـا، وتـدير رأسـها وتبكي.

كان أنفها احمر، وخدها احمر، وعيناها حمراوان، وشفتاها تتقلصـان في رجفة من يكتم ألما شديداً، وحزنا ممتداً.

في الليل تألمت كثيرا.. جاءها «المداوي» سريعاً، غسل يده بالصابون حتى بدت الرغوة على كفيه كالعجين المختمر، وأمسك بزجاجة اليزول، ثم غلى الحقنة، قبل أن يتهيأ للعمل.. وهي مستسلمة تئن، وكان أنينـها ينطلق وينكتم.

رمق أباك فأخرجك.. وبقي معه.

كانت خالتك تشعل النار، وتضع القدر على الكانون، وتسـتحث الماء أن يسخن، وتلتقط طرف «طرحتها» وتمسح الدمع، وأنت تلازمها

كلما تحركت.. حتى غار ولدها الصغير.. فطردتكما معـــا إلى الخـــارج وأغلقت الباب.. ثم سمعتها تشهق في همنهة عنيفة كالصراخ.. وفتحـــت الباب واحتضنتك.

كان وجهك كله في بطنها، وكانت تضغطك حتى كـــدت تختنـــق.. وأخذتك من يدك وأجلستك على الكنبة الخشبية في الردهـــة الواســـعة وقالت.. ووجهها يتقلص، ومجرى الدمع ينهل.

– ادع لأمك.. الله يسمع دعاء الصغار.

حدقت فيها، وهومت عيناك، وأتاك الدمع دون أن تنطق، وغـــاص وجهك في بطنها وهي تضغط عليك، لم تفتك الرجفـــة الـــتي شملتـــها.. فشملتك، فازدادت ضغطا. وخلعتك فجأة وذراعاها يحوطانك.. وتملت في وجهك وعيناها واقفتان، ومنفرجتان في تحديقة أخافتك..

وجذبتك من يدك، وأدخلتك عليها..

روّعتك الوجوه المنقبضة، والملابس السوداء، والنهنهات المكتومـــة، وخالتك تكشف عن وجهها.. أبيض جميل زاحمته صفرة باهتـــة، وحـــط عليه سكون وادع.. وداعتها في الصلاة. الرموش مسبلة كأنها في تعسيلة العصاري، فحجبت عنك خضرة «النن» الغامق.

ربتت خالتك على كتفك وطالبتك أن تميل علها، وتقبلها.. وحـــين ملت، ولامست شفتاك وجهها، شعرت ببرودة في الجلـــد لم تتعودهـــا.

فصرخت باكيا، وفردت ذراعيك تحتويها.. وترجها كي تفيق من تعسيلتها.

نهنهت النسوة، وامتدت الأيادي إليك تسحبك واحتضنك، حتى كدن يتصارعن عليك.

ظللت أياما تسأل عنها.. وأنت مشتت بين الأهل.. إلى أن علمت أنها سافرت إلى ربها في سفرة طويلة.. فانطويت على نفسك...

***

شعر بوخزة فانتبه..

رآه محدقاً فيه، وغارساً فم المبسم في صدره.. فجفل.

مد إليه يده بمنديل ورقي وأشار إلى وجهه، امتص المنديل بلولة العينين، وظل صامتاً.

هبت ريح صاهدة، ولاحت بعض السحالي تخب رافعة ذيولها.. وحين رمي بالحجر، توقفت، رفعت رءوسها الدقيقة.. وانتظرت.. ثم مضت تخب.

ركن المبسم وتوجه إليه بجسده كله.

- حالتك لا تعجبني..

احتار في الرد عليه فأسرع قائلاً:

– الأمر جديد.

يدرك أن داخله يمور بهواجس، وأن خوفه عالق بوجهه، وعجزه عن إخفاء ما به واضح.. في بلولة العين.. احتد ناصحاً كالمغيظ.

– يا رجّال.. أنت ستعيش مع «أوادم».

بشر.. ثلك.. والله لن يأكلوك!..

ما الذي يمكن أن يقوله؟ ومن ينقذه من حرجه؟ وهل يكشف نفسه.. ويبوح له.. بأنه ظل زمانا طويلا لا يعرف سوى بلدته، ومدينته.

– كلهم أخوة.. لكن الأمر جديد علي..

– إن ظللت هكذا.. ستجن..

– سأتعود.. كل جديد يبلي بالعادة.

وابتسم وهو يرنو إليه في صدق.

– يكفيني أن أعمل معك.

هز رأسه.. وراح يتحدث عن عمله في الشمال البعيد، حيث البرد، والعادة المغايرة، والبرد في الشتاء، وهو الذي تعود على الحرارة ولزوجة الهواء، والغربة التي شعر بها بعد مغادرته للمكان.. «غربة المكان قاسية، وكان لابد أن أقترب من الناس.. أهل البلد».. والناس حين يألفون يتوارى الإحساس بالوحدة والغربة.

وأدهشه صوته الذي علا فجأة وهو يقول:

– افتقاد الألفة أقسى من غربة المكان.

ولمعت عيناه.

– خذها نصيحة:

سيتحالف عليك الرمل، والخلاء، والوقت الطويل.. وافتقاد الصحبة.

وعليك أن تواجه ذلك كله.. وإلا...

توقف قليلا وهو يرمقه، ويلوح في الآن نفسه إلى الرجال الذين بدأوا يسترخون في أماكنهم.

– كيف تقوم بواجبك.. وأنت على هذه الحالة..

وعاوده التوجس فارتبك ولاذ بالصمت..

وأطل السائق ويده تقبض على الجاروف.. أومأ إلى الشباب فنهضوا.. وراحوا يخلصون «كفرات» العربة من الرمال.. إيذاناً بالرحيل.

***

يوم أن وصل إلى المكان قرّ في داخله أنه مفارقه، وأنه هاجره في التو.. له يدر في خلده أن يعيش حياة الهاجرة، ويتلظى بنار صحرائها،

وينبذ في فيافي ناتئة التلال، سبخة الرمال، شحيحة الشجر.. ويحتويه بيت كحوش المقابر.

واجهته البلدة بمبانيها القديمة الواطئة وسككها الضيقة. ميناء قـــديم مهجور على شاطئ البحر الأحمر.. لا يدل عليه إلا لسان متهدم وممتـــد قليلاً في المياه.. يهربون إليه للترويح، أو لصيد السمك..

البيوت متشابهة، ومن دور واحد، تميزها أحواش واسعة تطل عليهـــا حجرات متناثرة.. وبجدرها المطلة على الدروب نوافذ ضيقة وصغيرة، بها شرائح من الخشب، ومخرمات منمنمة تسمح للعيون أن ترمق الغادي أو الرائح.

أدهشته البيوت المجدولة من الجريد، وأغصان الأشـــجار، وأعـــواد الغاب وألياف النخيل.. وتذكر ما شاهده من بيوت الأفارقة ذات القباب الشجرية.. صنعتها مخدومة، وطرازها البنائي يـــدهش الخيـــال بجمالـــه وبساطته.. نوافذها مطرزة بنباتات السمر الملون، وفتحاتها الضيقة الـــتي تشبه العيون.. مسيجة بلون كالعقيق.

لم يبخل عليها أصحابها فراحوا يوفرون للواجهة، والأبواب، والجدر جماليات تتخذ من البيئة مفردات لها، لكنهم يتحاكون عن المنفعـــة الـــتي تعود عليهم من تهوية المكان وتدوير الهواء.

ثمة مبان متناثرة من دور واحد، مشيدة بالطوب الأسمنتي أو الحجارة، وقليل منها بني بالقرميد الأحمر.. يكتريها المتعاقدون وتشـــغلها المصـــالح

الحكومية.. ويهرب منها المواطنون لاكتنازها الحرارة والرطوبة.. أخـــذه المكان.

في نهاية الشارع تبدو البرحة الواسعة كسوق صغيرة..

وقف يرسل عينيه لعل أحداً يلحظه فيسعفه..

رأى اللقاء الحميم بين «سعيد» وصديقه.. وبهجة الصحبة تطل مـــن العيون.. لم تكد البدينة تمد يدها حتى رجها البكاء، فرمت بشالها علـــى الوجه، ودفعت بالولد إلى أبيه.. فالتقط الحقيبة وسار بهم حـــتى حنيـــة جانبية، ثم اعتلوا درجا وغابوا عن الأنظار.

توقع أن يقترب منه ويدعوه.. لم يفعل.. واكتفى بالتحيـــة ومـــرق. وظل منتظرا، حتى أخذه السائق من يده.. وقال ضاحكاً:

– مازلت وصياً عليك..

وسارا حتى وقفا أمام محل البقالة..

المدخل واطئ لكنه متسع من الداخل، مليء بـــالأرفف، ومكـــتظ بأغراض كثيرة بدءاً من الطعام والشراب ولعب الصغار، وحتى الأثاث..

أحنى السائق رأسه ونظر إلى الداخل فضحك «الغامدي»... كـــان الاسم مكتوبا على واجهة المحل.

دعاه إلى الدخول «فأشار إلى صابر» وابتسم.

– معلم.. جديد.. تركوه المصاروة.

نهض سريعاً.. وتهلل لما مد يده قائلاً:

– يا هلا.. كلنا أهله...

فاضت نفسه بشجن حقيقي، وأسره الدفء الذي يخرج من العبارة المجاملة.. فيلمس قلبه.

لمح السائق رجفة مباغتهة ونداوة في العين فبادر يقول:

– عايض الغامدي.. الوكيل

قبض عايض على يده، وحياه في ود صريح... وقدم لهما زجاجتي كولا، وقطعتين من الشيكولاته ماركة «مارس».

ومياه الكولا تنسال في رشفات مبتردة، والسيجارة تنسل من «الباكت»... نطق في تمهل واستمالة:

– وصاني عليه منصور.. ويبغي مسكناً.

أشار إلى عينيه فأسرع داعياً:

– سلمت عينيك.

أفتر ثغره فلاحت صفرة باهتة.

– لا تحمل هماً.

أخرج دفترا من درج الطاولة، وفر الأوراق وتوقف عند حرف الميم.. وسجل الاسم من واقع « جواز السفر» محمد صابر محمد، وحين علم أنه موجه إلى معهد المعلمين، تفرس فيه وأمعن النظر، شمله بعينه وأخبره أنه الوكيل وأنهم يتوقعون مجيئه من شهر.. والعمل ينتظره.

ومد يده إليه بورقة مالية فئة مائة ريال، وقبل أن يأخذها منه.. أخبره أن الرواتب تتأخر كثيرا.... و..

– نقوم بالواجب.. إذا جاءنا الراتب أخذنا حقنا.

وطلب من السائق أن يذهب معه إلى البيت.

– اطمئن.. ستصلك الأغراض..

وحين لاحظ دهشته. ابتسم في ود.. لا تتعجب.. نحن نبيع لك.. بالأجل.

***

دق الباب فامتدت اليد وسحبت الترباس:

انزوي خلفه وهو يلقي التحية في صخب.

– هلا مختار عساك طيب..

صافحه وأدار ظهره عائداً.. وهو يردد:

– استعد لجولة جديدة.

فرد ذراعيه على المدخل:

– ليس قبل أن ترى.

استدار مختار برأسه وظل على انحناءته.. وبدا كأنه ينتظر:

– ساكن جديد.

وقبض بيده عليه.. وشده.. فدخل..

كان البيت منخضا ومن دور واحد..

يتوسط المدخل جدار البيت الأمامي، وفي الجانب الأيمن مدخل آخر ضيق.. الفناء واسع ومفتوح على السماء.

الأرض مغطاة بطبقة من الأسمنت تأكلت وأحدثت فجوات صغيرة. أتاحت للنمل مأوى آمناً.. على اليسار حجرة بدت متسعة من امتداد الحائط الذي كشط ملاطه فلاح القرميد باهتا. في مواجهة المدخل مباشرة، في الطرف الآخر من البيت حجرة صغيرة بابها مسيج بالسلك.. وفي الركن المواه حجرة صغيرة لتجهيز الطعام، بها عدة أرفف عليها أطباق وسكاكين، وطاولة فوقها موقد مسطح، وأنبوبة غاز زرقاء كالحة.

وثمة حمام بلدي صغير بمدخل واطئ، ورشاش ماء قائمته مفكوكة ومشبوكة بحبل في غصن فالت من أعمدة السقف.

وبدا العنجريب الكالح المجدول من الليف شاهدا على زمن قـــديم. والحشيتان الصغيرتان مرميتان في إهمال.. وكرتونتان معدتان كمقعدين.. وحصيرة تفصدت أطرافها ملمومة ومركونة على الحائط.

شعر بانقباض وهو يرى البيت كأحواش الموتى، والفناء الواســـع لا تنقصه إلا نباتات الصبار.

التقط مختار السيجارة، فانفرجت شفتاه قليلا وارتســـمت الدهشـــة على ملامحه وهو يتابعه مع السائق في جولته.. ولاحت رأسه مدلاة:

- يا أهلاً..

متى الوصول؟

زعق السائق في صخب وكأنه في موقف مبهج..

- الحين...

جاء استقباله بارداً.. لم يشعره بحرارة، ولم يصـــله دفء المواطنـــة.. توهمه قابضا على يده، متأملا وجهه، جاذبه إلى حضنه، ماسحاً - ولـــو ببسمة مفتعلة- إرهاق السفرة الطويلة.

لم يفعل.. ظل حسه ساكناً.. محايداً..

ربما حكمته العادة، ومداومة الزائرين..

جلسا على العنجريب.. واقتعد السائق كرتونة.. وراح يتكلم عن «صابر» وصداقته لمنصور.. و«مختار» يضع ساقا على أخرى، ويمعن النظر إلى أسفل.

– هو أمانة في عنقي:

ووخز مختار ضاحكا.

– لن يتحرر مني إلا بسكنه..

خشي أن يطول صمته، ويتولد الملل.. فانبرى قائلاً:

– محمد صابر محمد.. موجه للعمل بمعهد المعلمين..

أدار وهه كله، فبدا مغضنا..

التقط السيجارة من «الباكت» وأشعلها، وقذف بالعلبة إلى السائق فجذب واحدة وأخرج قداحته..

نهض «مختار» صائحا في حركة استعراضية..

– أنت بين أهلك وناسك..

ومضى ناحية الغرفة الصغيرة..

ذكره السائق بأن الأفضل له ألا ينفرد بمسكن.. فالوحدة مؤلمة، والعزلة تتعب العقل، وتركب الخيال..

خرج من غرفته وبيده طبق ممتلئ بالمكسرات وقطع من الحلـــوى.. وبالأخرى.. مروحة من الخوص.. قدم الطبق إليه، وكبش حفنـــة ففـــرد السائق كفيه.. وراح يلوك الحلوى.. ثم فز قائما وهـــو يرمقـــه في قـــوة واضعاً يده على كتفه في ضغطة حانية.

– والآن.. دعنِ أمض إلى الأهل.

أشار مختار إلى حجرته وهو يحادثه في خفوت.

– أحب أن أنفرد بنفسي لأسباب في النوم..

وقاده إلى الحجرة الواسعة..

واجهة سرير بعمدان حديدية.. تحيطه كله بيضاء معتمة، مغموسة في علب من الصفيح المتلئ بالماء..

أبدى خوفاً مدهوشاً.. فقال:

– يقلقنا الناموس.. والعقارب..

الدولاب الصغير أكبر قليلا من الكوميدينو.. والجدار السميك عند فتحة النافذة يسمح بفراغ يمكن استغلاله.

– سيرسل الغامدي أغراضك.. الغرفة واسعة تكفي ثلاثـــة.. خـــذ راحتك.

رمى بجسده على السرير، فرد الكلة.. وأسلم نفسه لراحة مختلسة.

***

أسير فوق تل معشب، تناثرت فوقه شجيرات صـــغيرة، تنبـــث في غصونها، وتزاحم أوراقها زنابق بيضاء.. وصفراء.. أراني أخب فوق كلأ معشوشب كالنخيل الرابي، والفراشات تتطاير قافزة، صاعدة، هابطـــة.. ضاحكة... ترسل رفرفة كالنغم فتروح تحف بالمكان. يضـــج الشـــجر. ويرقص الورق، وينساب صوت كخرير الماء حين يصـــافحه النســـيم، فتضحك الوجوه وهي تكشف خضرتها المسدلة.. وتلوح خلف الزنـــابق كهيئة النجوم الساهرة.

يتقاطر الماء من الفضاء الرحب قطرة، قطرة. تتواصل القطرات كأن بينها خيطا من الفضة، تمتصه الزنبقة فترتعش أحس رعشتها، أنفتح على أرجائي مثلما يتفتق الورق من الزنبقة. الله ما أجملـــه.. كيـــف جـــاء.. وارتوى!!.. من أت به! ومن أخرجه من فتحة الـــورق!! تســـرب مـــن عصارة الساقق حتى اخترق القلب.. وأطلّ.. باهراً.

ظلتت أبحث عنك، وأنت تدفع الزنابق، تطل عن كثـــب، كأنـــك تبحث عني وأنا الذي أبحث عنك، تحوطني من كـــل جانـــب، كأنـــك التعويذة.. أقترب، وأمعن النظر، أكاد لا أصدق.. مـــا الـــذي جعلـــك مطروحا في الكون!!

أشعلت الرغبة، وأججت الهوى.. ما بالك تتجلـــى حـــتى تكـــاد تتخفي!!

عين هذه الزنبقة عينك، شعرك تناثر في الوبر الناعم.. فدثر التويج وأدفأه، وحاجباك تبديا في انحناءات الشجر وعصارات اللون.. أخذت الخدود حمرتك، وتجسد الفم وردتين حمراوين، وتقاسم الزنبق ثغرك.. فتألق.

أروح ملهوفا عليك، أسعى بين الزنابق، أراك موزعا ومنثورا، ضعت بينهما، وتشتت جمالك.. عدوت رامحا لأجمعك، استعصيت، رأيت مهدرا دمك، وأنا الذي حسبتك خالصا لي..

ظللت أدهس بقدمي الكلأ، وأنت تراودني، تتخلى عني، وتقصدني. ما الذي جعلك تفر مني!

تتمدت القطرات، وينهل المطر. يحجزك الماء، الماء الذي يتمدد حتى كاد يغرقك.. وأنا الذي أجهل العوم أنقذك.

وأنت تستكن في الورق ويحصرك.. ويبعدك.. وأنا الذي أجهل العوم.. أنقذك.. والماء يجذبني.. ويجذبني.. وأنا الذي أجهل.. أجهل..

وتوقف التنفس، فهب فجأة دافعا بيديه كتل الماء قبل أن تتسرب إليه، وتأخذه.. وخبطات العصا على النافذة في ليل ساكن كقرع الطبول تنفلت وتخرق مسمعه.. والصوت خشن ومبحوح، يدعو النائمين أن يهبوا لصلاة الفجر في المسجد الكبير.

علا صوته مغيظاً.

– أهذا وقته!!

وجذب الوسادة ووضعها على أذنه في ضغطة قوية.. لكن «صلاح» كان قد نهض عن سريره، ودس قدميه في مداسه واتجه إلى الحمام.

شعر بهمود حقيقي، وآثار حلمه المائي يرهقه ويعطل عقله ويربكــه، وهذا الماء الذي كاد أن يغرقه ظل يستدعي موجه، ويتأمل الوجه الـــذي يفرش ملامحه ويصطاد الزنابق.

وزميله في الغرفة ينسي رجاءه، فلم يخفف مـــن حركتـــه ولم يـــراع أضغاث الأحلام التي تكبده كثيرا من الجهد وتحرمه متعة النوم.

وصله حوار آت من بيعد.

كان الآمر بالمعروف، الموكل بتنبيه الناس إلى مواعيد الصلاة، والذي يمر على المحلات آمراً بغلقها، ويقتاد المتخلفين إلى القاضي لينفذ الحكم.. الجلد أو الترحيل – لم ير مرة واحدة مواطنا جلد من أجـــل الصـــلاة، كانت الخمر هي السبب – يرفع صوته مرددا.. اسعوا إلى ذكـــر الله.. وذروا النوم.. ووصله صوته وهو ينبه «لصلاح» أن ينبه زميله في السكن أن ينتظم في الصلاة بالمساجد.. ويدع الكسل.. ويوقع بالحضور.

«والله لولا البذورة لوقفته»!

حين دخل وجده جالسا يشغله الحديث الذي سمعه.

– سمعت!

– لم يبق إلا أن أوقع في الدفتر على عتبة الجامع.

أنهي صلاح ارتداء ملابسه. استحثه أن يقوم معه، وأن يغلق صفحة هذا الرجل الذي سيطارده كلما عنّ له أن يضايقه..

– دعني.. سأصليه قضاء..

في الصباح وآثار النوم لم تذهب بعد، أفهمه «مختار» أن الآمـــر.. ولم يكمل.

كانت سعلة متقطعة وممتدة ترجه، وتحني جزعه، وتشد عروق وجهه كأنما تخنقه.. تمهل وهو ينظر إليه.

– يقول.. إنه يصبر عليك مراعاة لي..

لا يذكر أنه صلى بالمسجد جماعة إلا قليلاً.. ولم يعلم أنـــه يـــؤدي فريضة الفجر بالجامع.. وأن صلاح وحده هو الذي يداوم عليها.. مع أنه يتهاون كثيرا في بقية الصلوات.. ويردد لمختار كلما اجتمعوا في وســـط الحوش لشرب الشاي ولعب النرد.

– سيشهدون أنني أؤم المساجد فجراً..

ويخبط بالحجر صائحاً في ضجة.

– ولو..

في المعهد ناوشه الغامدي ضاحكاً:

– أقلقك الرجاّل.

لم يفهم أي رجال يقصد، فقبض على اللحية، ودق الهواء بقلمه.

– حين يأتِ إليك فجرا، أزهم عليه بالدخول:

أجاب مندهشاً وعامل الشاي يناوله كوبا صغيرا مزينا..

– وماذا لو دخل!

توقف العامل بغتة للخوف الذي وشي به الكلام:

– لن يدخل.

وأشار إلى العامل.. فانسحب مغيظاً:

استدار بمقعده رانياً إليه.

– سيعلم، أنك تعلم أنه يقبل منك أن تهاديه.

لم يتعجب كثيراً فالشبكة التي ينسجها.. متقنة الصنع، لكن ثقوبها تتسع، ومع أنه لم ير منه أذى إلا أن إشاعة الخوف عادة تلازمهم..

وهو يجر الترباس بجرسه الزاعق واجه «مختار» متسائلا قبل أن يدخل من فتحة الباب.

– أتهادي الآمر؟

نحاه مبتسماً ولم يعلق.

***

كان قد أنهى للتلاميذ أنه سيصطحبهم إلى عدد من المدارس الابتدائية مرة كل أسبوع لمشاهدة المدرسين أثناء إلقاء الدروس، وعليهم أن يدونوا ملاحظتهم على طريقة الأداء وتوصيل المعلومة ومدى استجابة التلاميذ أثناء الشرح، والتي تتضح من المناقشة وإلقاء الأسئلة وانضباط الحركة، وعليهم أن يقارنوا ما يدرسونه – نظرياً– بما يرونه– عمليا– ويسجلوا وجهات النظر التعليمية والتربوية اللازمة في هذه المواقف.

ذكرته المدارس الابتدائية التي زارها بمدرسته الأولية في أواخر الأربعينيات.. مدارس تفتقد المواصفات الفنية، والتربوية، مبان قديمة متهالكة.. وأغلبها مؤجر.

أدهشه أن يرى «هناجر» الصا ذات القوائم الحديدية كفصول إضافية يتلقي فيها الصغار دروسهم.. وهي تتحول إلى قطعة من اللهب في الصيف، كما أقلقته رائحة تهب من خلف المبنى.

يغريه دائما التعرف على الحمامات، يعتبرها المرآة الحقيقية لنظافة المكان.. الحمامات جماعية، تنشع بالرطوبة، والمياه تندفع رفيعة من ثقوب المواسير الصدئة والرائحة تزكم الأنف، والباعوض يترصد من يغامر بالدخول، وخزانات المياه مكشوفة ومعشبة..

جأر الجميع بالشكوى... وأعلنوا في وضوح – المكان لا يصلح– وإدارة التعليم في المبنى الجديد المنشأ في البدء مدرسة.. تتلقى الطلبات

وتعرضها مشفوعة بملاحظة مهمة «ليش ثمة مساحات بالبلدة تصلح لإنشاء مدارس جديدة» وتليها ملاحظة أخرى «الترميم يحل المشكلة».

الأمر نفسه في المعهد الذي يعمل فيه.. الحمامات مشكلة يومية تحتاج إلى ترميم متواصل.. وعمالة تقوم بالنظافة.. مثل هذه الأعمال لا يقبل عليها المواطنون ويلحقوها بالأجانب.. ومهم اليمنيون الذين يغص الجنوب بهم.

ذات يوم التقى رجل التعليم بالعاملين بالمعهد، أثنى على الجهود المبذولة، وطالب بتحسين الخدمة التعليمية وبذل أقصى ما يمكن فعله لإظهار المعهد في ثوب جميل.. نظافة، ونشاطاً، ولوحات وصحفاً.. وطالب باختيار عدد من الطلاب النجباء لتدريبهم على الخطابة، وإلقاء الشعر، والمناظرة وتهيئة نشطاء في الألعاب الرياضية والكشافة، بمناسبة زيارة الأمير للمنطقة.

زيارة الأمير تعد عيدا تعمل الأجهزة كلها لإنجاحها واستمطار رضي الأمير عليهم.

كان «سعيد» في صحبة رجل التعليم، فمنذ أن وصل أبدى نشاطاً ملحوظاً في تخصصه، كون فرقا كشفية بالمدارس وأقام معسكرا في الصحراء، وآخر في قرية نائية.. وتحدث الأهالي عنه باحترام وتقدير.. وراح التلاميذ يتحاكون عما فعلوه مع الموجه «سعيد».. حتى أصبح قريبا من رجال الإدارة التعليمية.

لم تفته ابتسامته.

انتهز الانشغال بتناول الشاي وتقدم.. قبض على يده وعاتبه:

- لم نرك من مدة.. الهانم تسأل عنك.

كانوا قد اجتمعوا في عيد ميلاد ابنه الصغير وامتد الحديث، وتعالت نغمات الموسيقي، وتجلى صوت أم كلثوم فأوجع القلـــوب، وذكـــرهم بالأحبة والأهل.. والوطن، وانكفأ كل منهم على نفسه يلعق آلام الغربة ويندب حظه.. والظروف التي أجبرته على الخروج، وظلمة النكسة التي تأخذ الأرواح معها.

ظل مسنداً رأسه على ساعديه حتى خالوه غفى، أو فقـــد وعيـــه.. وأدركت الهانم أنها قست عليه، وأنه يحتاج إلى نوع من الرعاية وأبـــداً لم تقصد السخرية منه أثناء السفر.

اقترب من رجل التعليم.. كان يود أن يحادثه عن المدارس التي تعوق نجاح العملية التعليمية، لكن الغامدي كان قد انتحى به.

- وافقتم على المكان.

تتعدد أنشطة الغامدي، بيوته المؤجرة — وحدها- تدر عليه دخـــلاً كبيراً.. ووكالته لعدد غير قليل من المتعاقدين تضفي عليه هيبة، وتجعلهم في قبضته.. ومع أن أحداً لم يعلم أنه أساء التصرف معهم.. إلا أنه استثمر ذلك جيداً.. حتى بات محور اهتمام الجميع.

– تدري.. اللجنة ترى أن البيت رغم غرفـة الكـثيرة يحتـاج إلى تعديلات.. وترميمات.

مس أنفه بإصبعه:– سم.. كل شيء متاح.. وقع بس..

تمتم رجل التعليم. عيّن خير

وقبل أن يمضي مال الغامدي وهمس.

– وبيت الآمر بالمعروف! والصلاة.

مدارس البنات.. في أماكن معزولة. .وبيته بارز ومجروح..

– طال عمرك..هومستعد لنقله أو بناء سور حوله..

ضحك في قهقهة علت حتى توجهت العيون إليه وانسحب وبسمته معلقة بشفتيه:

– الآمر.. لا يشبع.

الدرب المتعرج والمترب من معهدك إلى بيتك، يحتويك ويأخـذك إلى متاهة كلما دخلت فيها خرجت لتجد نفسك محاصراً بحفر وأخاديـد.. تصطاد عيناك أولاداً يمشون على الحافة، و«يزهمون» عليـك بلـهجتك المصرية، ويلوحون.

وترفع يدك محييا، فيطويهم الطريق ويغيبون. يتكالب عليك الرمـل، والزواحف، والحفر ودوائر الملح البيضاء في الأرض السبخة.. والمسـافة

تدخل فيك، تمزقك، واللهب يهب وتعجز عن اتقاء رشة الشمس.. تلوم نفسك أنك لم تستخدم المظلة، أو تلبس الطاقية البيضاء المخرمة – وتكتفي بنظارتك البنية، ومنديلك الملفوف حول رقبتك.

وتصبح العودة إلى البيت ملاذك من وقدة الطريق، وخلوه من المارة.. لا يمشي في هذا الوقت إلا رجل أنهى دوامه كاملا، وافتقد وسيلة للعودة – لكنك في الحقيقة تخشي عودتك.. تلتف حول نفسك تلعق الألم.. والجفا يصحبك، وروحك تذوي..

يرين على خيالك كلس يحبطه، يسيرك في مسار واحد حتى عجزت عن تجسيد وهمك.. وجهك بشعره المنسدل لم تعد قادراً على اصطياده.. ولم يطاوعك الهجير وهو يسعى إليك فغيبك في لظاه، حتى فر منك وتركك للوجوه المغضنة.. تهاوى كل تهويم، وانطمس الشعر، وبات «صلاح» يضحك منك، والضحكة تستعصي عليك، وهو يحكي عن صبواته وامرأته التي يستدعيها كل ليلة قبل أن تغيبه الكلة بثقوبها الضيقة.

كان في البدء يتخفى وهو يقرأ خطابها إليه، ويحرص على حجب عواطفه، وتتعجب من إقبال صلاح بكل انفعالاته على الورقة المهمورة بخطها، ولماذا كل هذا الوله من زوج قديم.. الشوق، وضغطه العين، والبسمة الرقيقة الحانية والتنهيدة العميقة واسبالة العين.. مصاحبات تراها وهو يكاد يدخل إلى الأسطر ويتدثر بها.

الله ما أجمل الحب!! مع التعود.. لم يعد يتخفى ولم يكتم ما يقرأه إلا قليلاً.. كان يحب أن تراه و «مختار»– أثناء وجوده– ملهوفا عليها، ويحرص أن يرسل إليك إشارات حبها له. وكنت تقترب منه حتى تخالطه.. فتعذره حين تتندى عيناه بالدمع.

يقول إنه لم يعد يقوى على بعادها.

فاستدعاها..

لا يأتيه النوم إلى على لمسة يدها..

لمسة هي أحنى من الماء في الصحراء اللاهبة..

يسري الحنان فيرويه ويشبعه وترتخي الأعصاب..

ويروح في دنيا الحلم.. وفيض أنغامها..

– لا شيء يساوي حضن امرأتك.

تأخذك بين يديها فيتحقق وجودك، وتحتوي الكون..

صوته العالي يقصدك، ويستحثك ولا تصدق أن يذوب حباً.. وهو الذي لا تراه إلا ممسكا بالقلم.. والسيجارة بين شفتيه وعينه اليسرى تنغلق من دخانها – يدون حساباته وينهر «مختار» حين يسخر منه.. ويتحسر على المال المرتهن لدى «الغامدي» والذي لا يقابل قسوة الأيام

وغربتها.. يرفع صلاح طرف كلته، تراه بملابسه الداخلية، تائها مضـــيعا ينظر إليك كأنما يبغي سماعك:

- حين تبتعد عنها.. تقترب منها:

ويتمتم وهو يضع الراديو على صدره.

- أنا الآن اقترب منها.

ويروح في هويمة فتدرك أنه يحاسب نفسه، ولسانه يردد:

- أندم على لحظات الخصام التي تطول.

يسدل الكلة ويعلو صوته لائماً.. ونادباً:

- لو علمت أنني سأغترب.. ما تخاصمت ابداً..

فجأة يجأر صوته.. ضاحكاً.. كعادته تتبدل الحال، ويكسر «الرتم».

- نعلمك بلا مقابل.. دع الخصام واتبعني..

لكنك مازلت تبحث عن لحظة الوفاق..

الأيام تسلمك للأيام.. والنسخ تتكرر في خواء نفسي..

تنشغل بعملك، ينسيك الوقت الذي تخشاه والوحدة التي تزكلك.. ولحظات العراك خلف الكلة..

***

في ليلة ثقل فيها الهواء، ومشت الرطوبة حتى كادت أن تكشط من فوق الجلد، والحائط.. والآنية، تمدد «مختار» على العنجريب في الفناء الواسع وتحرر من ملابسه وبدا في سراويله القصير الواسع مدعاة للتفكه. من حظه الحسن أن صلاح غير موجود.. فراح يدور في المكان الذي لا سقف له غير سماء رمادية تتبدى فيها النجوم لامعة.. قوية، وظل يصدر صفيرا من فمه يحاكي فيه نغماً قريباً من إيقاع أغنية أم كلثوم «لسه فاكر».

فجأة انتابته نوبة ذهول فتوقف.. حدق في النجوم.. ثم بكى.. جاء بكاؤه حاداً.. ورجته النهنهة.. تتأجج مشاعره تجاه أولاده الصغار.. يطوف خياله بهم، ويظل يحكي في آخر المساء عن زواجه الذي تأخر كثيراً.. وأبنائه الذين يخشى عليهم غدر الزمن..

حين ارتخت مشاعره مضى إلى الكرسي وتمدد ثانية.

بدت بشرته بيضاء.. ثمة مساحة حمراء أعلى الصدر.. وعظام الترقوة النافرة تصنع فراغا يلتئم كلما اعتدل جسده، أو رفع ذراعه.. خلا الجسد من الشعر فبدا أملس.

رفع صوته ونادى عليه.

خرج «صابر» من الحجرة.. كان يرتدي الجلباب الأبيض الواسع.. تأمله في ضيق ثم قال:

– أتطيقه؟

تعود أنيراه عاريا، يتحرر من ملابسه كأنها قيد عليـــه.. لا تفارقـــه السيجارة، ولا تتخلى عنه عبسة تشد جبهته وتصنع الأخاديد.. لمح حمرة في العين فأدرك أنه وقع تحت وطأة انفعاله اليومي.. وتمنى لو كان صلاح موجودا لخفف عليه الأمر فهو يطارده.. ويلاحقه بالتعليق، وحين يلقـــي نكتة يبالغ في تقبلها فيضحك حتى يسعل في قـــوة.. ويـــردد في بـــطء مقصود: لا حل لك عندي إلا دور طاولة.

هز رأسه وقال:

– أتشرب شاياً؟

وحرك جسده. أسقط رجليه وهيأ للنهوض. وقبل أن يدس قدمه في المداس، خرج صوته بطيئاً..

– سأصنعه:

تعود منه كلما أراد شيئا أن يبادر بعرضه، ثم يهـــم بـــه.. فيســـرع الأحدث عهدا بالمكان.. أو الأصغر سنا لتلبيـــه المطلـــب.. فيتمهـــل في حركته، ويرنو في عرفان ثم يعاود جلسته ويشعل السيجارة:

ردد «صابر» في عجالة وهو ينسحب ناحية الحمام:

– سأغتسل وأصنع الشاي.

أمسك بالمروحة، حرك الهواء، وأبعد الناموس، اطمأن إلى زجاجة المياه الممتلئة بالجاز، يصبه كلما رأى الحشرة البنية كثيفة الأرجل.

ووصله صوت فرقعة.. فعلم أنه الآن يسكب الجاز، ويلاحقها ويشعل عود الكبريت، ويرمي به فوقها. تلتهمها النار، ويظل ينظر إليها.. ثم يسبها.. وهي تتناثر أمامه، كان يبدو عليه شعور يقترب من التشفي... وتسمع منه تنهيدة طويلة كأنه أزاح همًا يرزح فوق صدره.

وضع براد الشاي على الطاولة واقتعد مقعدا واطئا من الخيزران، كان الغامدي أرسله مع كرسي آخر وصوان صغير للمطبخ، اعتدل في جلسته وراح يصب الشاي ثم يعيده إلى البراد.. ووضع عددا من أوراق الريحان وأحكم الغطاء.. واتكأ.. نطق في تمتمة:

– شيء نصنعه بأيدينا.

يختلط الدخان بالهواء اللزج.

– المعلبات أفسدتنا.

يرتشف من الكوب في صوت مسموع ويضج بالضحك:

– حين أزهد المعلبات.. أعزم نفسي على واحد من المعارف:

فآكل الأرز باللحم وأحتسي المرق.

كان قد لاحظ دعوته الدائمة لحضور المناسبات..

لم يعتذر أبداً.. يرمي بعلب سجائره في حجرتـــه، وينظـــف أســـنانه ويرتدي جلبابه القطني الأبيض، ويحبك غترته، ثم يتعطر من قارورة أتـــى بها من جولة تفتيشية:

- لا أراك في مجالسهم.

يملأ الكأس، وينحي ورقة الريحان الساقطة.

- لم يدعني أحد.

ضحك، ثم تبرم قليلاً وأشار إلى البيت المجاور.

- ولا هذا...

كان يقصد حارس المعهد الذي يعمل فيه.. أتى من أطراف الجنـــوب البعيدة وعمل بالمعهد حارسا، ثم استقر بالبلدة.

- أهل الجنوب يهاجرون كثيراً.

وهو يضع كفه على الكوب إشارة على اكتفائه كعادة أهل البلاد..

- لا تأمن جانبه.

وراح يتحدث عن السوداني الذي كان يعمل بالمعهد منذ ســـنتين.. وعيناه مصوبتان عليه..

كان مولعاً بالخمر، حتى تكاد لا تفارقه، يقارفها كثيراً، ويـــدخن في شراهة.. كان ودودا.. ويحب الجماعة، فلا تراه إلا في صحبة إخوانه من

السودان ومصر، واختلط بأهل البلد.. صادق الطلبة وشاركهم رحلاتهم في البر كثيراً.

كثيراً ما تستر وتخفى.. لكن .. من يستتر عن الطلبة في الرحلات.. حكى زميله في السكن أنه في ليلة رأس السنة تخفي يوما بليلتـــه، وظـــل يشرب حتى فقد وعيه تماما وانكفأ على نفسه غائصا في بوله وفضلاته.. وخاص لسانه في كل شيء..

خشي زميله على نفسه فقيده ودفع به إلى الحجرة وأغلقها عليه، ثم أتى بطست واسع، أجلسه فيه وغمره بالماء حـــتى اطمـــأن إلى ســـريان الروح.

ذات رحلة صاحب الحارس الطلبة.. وشاهده متخفيـــا.. يشـــرب خلسة بين شعاب التلال.. وترصده حتى اقترب منه وضاحكه.. ركبـــه الرعب.. فازداد قرباً.

بدت له عيناه ضيقتين كعيني ثعبان صحراوي، ولحيته الكثة كنـــدف مكنسة الليف.. تودد.. ثم طلب.

– ولد .. اسقني.

اسدل المدرس ثوبه السوداني وترنح .. فكرر طلبه..

– ولد.. اسقني.

– ليس معي ماء..

ضحك فلاحت له أسنانه الصفراء كأنياب حادة:

- أعلم أنك تشرب.. العيال حكوا.

اقترب منه، وامتد الكف، ربتت على الكتف والصدر:

- أتصدق العيال.. يا بو مسفر.

- لا أصدق غير العيال.

وصمت.. وران سكون لا تقطعه سوى نداءات الطلبة.

- تأتون إلى بلدنا، وتأخذون أموالنا.

وتعلمون الأولاد الخرابيط، والحرام.

ويمد يده، ويشده من كمه الواسع.

- وتكذب أيضاً - وتدرسهم أن الخمر «رجز» من عمل الشيطان. والمدرس، لم يكن يهمه كثيرا أن ينقل أو حتى يلغي عقده، لن يقدم له خمرا.. لا يحق لأمثال «مسفر» أن يعرف ماذا يفعل!.. ولاح السن ضيقا، وعقوبة الجلد تنتظره.. وتجريسه أمام الناس والطلبة يأخذ روحه قبل أن يأخذوها.. ما الذي جعله هذه المرة لا يجيد التخفي.. أكان يترصده!

- ولد.. أنا لا أشرب.

وزغدة بإصبعه الناشفة.

– أعطني.. كل شهر. نظير سكوتي.

وذهب الحارس كما جاء.

لوح مختار بيده لينبهه.

– آخر العام.. ألغوا عقده..

ثم ضحك في صخب، ونهض قائما.. وقعد:

– أخلف السوداني وعده.

فقالوا إنه يسكر في رمضان.

دعك السيجارة بأرض الفناء..

ظل يطؤها في غل حتى سحقها تماماً.

وعيناه تحدقان في الأرض وتتابعان حركة السحق.

وزمة قوية قبضت على وجهه وهو يقول:

– توسطنا له.. حتى لا يجلد.

لم يكن يراه إلا بابعا خلف الباب، وكأس الشاهي في يده، ويلذ له أن يقف فوق العتبة يستاك ويخلل لحيته المحناه.. وينادي على الطلبة أن يسرعوا.. يضحك لبعضهم، ويعبس للآخر .. يتحرر من جلبابه وغترته، ويدخن.

كان يلمح عددا قليلاً من الطلبة يجلسون على أريكته ولم يمنع الباب الموارب من رؤيتهم يأكلون.. ويدخنون.

نبه الغامدي إلى خطورة المسلك تربوياً..

ابتسم من حنية فمه كأنه مجبور

– الطلبة مردة.. يعرفون كلي شيء.

لم ينس تلك النظرة التي وشت بالمفاجأة، وهو يراه يتضاحك مع طالب، ويختطف منه السيجارة، ويعصر شفتيه بإصبعيه.. باحت نظرته بغلّ واضح، تنبئ عن عداء.

قال مختار وهو يشمله بعينيه

– انسه..

وعاود النظر كأنما يريد أن يلقي إليه بأمر. عمله كموجه جعله يتعرف على نماذج متباينة، ويحتك بكثيرين، ويعقد صداقات مع الوجهاء.. يتوقع منه أن يبوح بشيء.. يظل يرسل البصر ويطأطئ الرأس ويسرف في التدخين ثم يلقي حمولته.

– ما الذي جعلك تذهب إلى الغامدي؟.. ليس لك إلا أن تدخل الفصل، وتلقي الدرس، وتجلس في حجرة المدرسين فقط إلى انتهاء «الدوام».. وتعود إلينا.

وهزه في رفق، وبدا أنه تألم من ضغطه الأصابع.

– احجب ناظريك، وسد أذنيك ودع قدمك تسير.. وتذكر أنـــك جئت من أجل حياة جديدة تنتظرك.

الذين ينتظرونك كثيرون.. زوجة أبيك التي تتوقع منك دعما وهـــي التي ربتك، وأختك الجميلة التي أسرع أبـــوك وزوجهـــا.. تحتـــاج إلى ملابس، ومال تكتزه.. فهي تتوقع الغدر.. وهي.. بوجهها الســـاكن في غيمة شعرها، وقلبها المرسوم في بياض عينـــها.. توصـــيك.. بالصـــبر، وتدعوك أن تعيش غربتك من أجلها.. فتلك السفرة.. سفرتها.

ومطلوب منك، أن تترك نفسك لقدمك، وتلغي عقلك، وتســكت عن أخطاء تراها تمس عملك وتسيء إلى التربية.

***

كان الوقت خريفا، وفلتات الريح الهادئة تتوالى على فترات بعيدة. والجو.. لا تزال تقبض عليه الرطوبة.. وسعفات النخيل تتمايل في حـــذر خفي.. وبدا المكان يستعد ليقظة مباغتة، وينفض عنه عباءته الســـاخنة التي جعلته يطوي داخلها كائناته. وبدأت الشوارع المؤديـــة إلى برحـــة السوق تتعرف على أقدامها. والناس يخبون في أرديتهم ويوقعـــون علـــى أديمها في خفة لها شكل الوطء الثقيل.

وأطل «صلاح» من النافدة رشته نسمة هادئة، وتجاوزته في جـــرأة لم يتعودها، فحركت كلة السرير وأرعشت وجه «صابر» الغافي... فتمطى ومد يده وعقد طرفها.. ونظر. يطل البيت على شارع جانبي.

يواجهه بيت قديم.. وجميل... أبقى على طرازه السالف، فجـــدلت أركانه وقبابه من الأخشاب وأغصان الأشجار، وأحاطه سور مجـــدول في نمنمة متقنة حتى لا ترى العين فراغا تلج منه.. والنوافذ باتساع الـــرأس والصدر مزخرفة كالمشربيات.

لاحظ باب السور مفتوحا فعلق.

– الآن.. ستخرج العجوز البيضاء..

لم ير أحد وجهها وهي تتكئ على عصاها، وخلفها أمتها السوداء.. باتجاه السوق، أو ناحية بيت «الحارس».. تغطيه بشيفون أسود خفيـــف، يحجب الوجه لكنه يبينعن بياضه..

تسأل عن مختار.. يوم أن أمعنت النظر في وجهه. أعلنت أن فيه عرقا تركياً.. وظل مختار يتندر بوصفها للجمجمة، وانحناءات الذقن واستدارة العيون.. وحدة الأنف.. كلما جاء ذكرها.

كانت قد أعدت مأدبة كبيرة بمناسبة زواج ابنها الأخير والذي يعمل خارج الوطن.. دعت لها كبراء البلد، واصطحبه رجل التعليم وطالـــت السهرة. وفي الوداع، تقدمت، وسلمت، سافرة الوجه في حشمة طاغية، وسلوك محترم.

لحظتها.. وصفته، وحددت عرقه، وداومت على دعوته كلما أقامت مأدبة.

نظر في مرآته.. فصاده بركن عينه وهو يطمئن على هندامه، تأني وكبس طاقيته البيضاء.. ثم أسبغ على جسده جلبابه الأبيض، واستدار إلى رف خشبي، وتناول قارورة العطر ورشها في سخاء.

زاحمته الرائحة فتأفف.. علا صوت «صابر» كأنه ينهره.

– قلنا.. أبدلها بعطر البشر.

ضحك صلاح، وعاود الضغط على رشاش العطر، ذكرته الرائحة الزنخة بعرق الهنود. ذكره برأي مختار فيه.

– أنت تشتري الرخيص.

تهيأ للخروج، وعرض عليه التتره، وخيره بين الجسر أو اللسان، أو برحة السوق. أهمل صابر الدعوة. والتقط صحيفة محلية وجرت عينه عليها:

– ألا تحب أن ترى امرأة!

ومد صلاح يده وفتح شباكا يطل على درب ضيق.

هبت رائحة نتنة، وتطاير ناموس كالهاموش، وصاح جرو صغير.

– لعلك تتسلى!.

نتر نفسه، وأغلق الشباك وصاح في ضجر ملبياً:

– إلى السوق.

***

تتلاصق البيوت وتتشابه وتمتد في نظام واحد. نادرا ما ترى بيتا بطابقين، على غير ما تراه في البيوت المتطرفة.. المداخل واطئة، والنوافذ ضيقة وعالية.

ثمة أعمدة متناثرة قائمة على منحنيات الدروب، تترف في الليل ضوءا شحيحا، والمحال صغيرة متجاورة تفرش الطريق الصاعد إلى برحة السوق.

شاهدا «الغامدي» يجالس نفرا من الأهالي. ألقيا السلام ومشيا. أكثر «صابر» من النظر في الوجوه.. اليمنيون في حوكاتهم القصيرة يذرعون الأمكنة، يدخلون، ويخرجون.. ويعرضون خدماتهم.. وعجائز الإماء السوداوات، اللائي تحررن حديثا، يسترن صدورهن العارية بشيلان سوداء لا تحجب شيئا.. يضقن بتحررهن، فلم يعدن قادرات على تدبير الطعام.. أو المأوى.. تراهن يتهالكن متسائلات.. أو متطلعات يشحذن بعيونهن.. قليلة هي المرات التي يرى فيها امرأة تحكم عباءتها .. تكتفي الواحدة منهن بانسدالها الواسع. وتترك للهواء – إن هب– أن يجسمها ويحددها.. ولن تجد محددا إلا هاتين العينين الكحيلتين، تضجان، وترقبان.

فجأة رآها تمسك بيد طفلها خارجة من البنك.. والعباءة المسدلة تغمر جسدها الممتلئ، ومنديلها الأبيض المطرز بالخرز يشد رأسها ويحجب شعرها إلا من خصلة تتأبى.. ولا الوجه سافرا.. من الوجوه النادرة لنسوة متعاقدات، يتبدى وجه المليئة مشدودا، ومتوترا، كأنها ترسم معالمه.

لاحظ العيون تتابعها، و«سعيد» من خلفها يقبض على سلة ملأى بأغراض منزلية.

تباطأ في المسير، وتواجها في برهة خاطفة.

ثم وقفا أمام البنك.. المقر صغير كأنه دكان و«الزهراني» يجلس أمام مكتبه.. يعمل وكيلا بالمدرسة المتوسطة التي يعمل بها صلاح مدرسا للرياضيات.. يمارس ما يمارسه الغامدي، لكنه يشرف على فرع البنك الأهلي التجاري بالبلدة – المقر الرئيسي بجدة – فاقتصرت حركة التحويلات المالية عليه فازدهرت تجارته.

هبت رائحة الخبز الطازج من مخبز «التميس» على ناصية الدرب، واليمني يبذل جهودا متواصلة لتلبية رغبات الواقفين، التميس بالسمن، بالسمسم، بالزبد البري أو بدون شيء.. مسحة من الزيت تكفي.. يتناول العجين المكور، والمخمر، يفرده على «مطرحة خشبية» ثم يضعه على صينية مقببة، ويلقي به في الفرن مستويا دائريا. يقبل الجميع عليه. يشتهيه مع العسل بالطحينة.. مثلما يحب تناول الفطير «المشلتت».

اشترى صابر رغيفين وابتاع علبة الفول، والجبن المحفوظ، والحلاوة بالفستق وعلبتين من الكمبوت، وسجل مشترواته لدى الغامدي. وابتاع صلاح من «الزهراني» الزيتون والجبن المطبوخ وسجل أغراضه أيضا.

مر بالقرب من المستوصف الصحي فأحب أن يطمئن. اعتذر لصلاح كي يلحق بالطبيب قبل انتهاء فترة العمل في المساء. وتواعدا على اللقاء بالمقهى في برحة السوق.

ومع أن أموره الصحية مستقرة إلا أن حالة الإمساك التي يعاني منها تقلقه، وتؤلم جانبه الأيمن.

يثيره وجه الطبيب العراقي، حين يتحدث كثيرا عن فترة دراسته بالقاهرة وسكنه في حي الدقي، تؤلمه بسمته الخبيثة كلما جاءت سيرة النساء.. كأنما يتعمد إغاظته.

أعطاه «اللبوس» وحبوب الهضم، وأكياسا فوارة.. ونصحه أن يشرب المياه صباحاً.

وقال وهو يضغط الجرس أمامه:

– زجاجات المياه أفضل لك.

وابتسم في مكر– لا تبخل على صحتك.

هلت طويلة، نحيلة تلملم بأصابع يدها أطراف عباءتها، وعيناها تومضان. قبل أن تمرق إلى غرف الطبيب رنت إليه في إطالة،. خالها تبتسم.

أثاره الحنين، فارتجف، فعدا خارجا، استقبله الدرب، فاستدار وانعطف. العين الوامضة تدفعه، وتغريه بالمطاردة، والفضاء الذي جابه في الخلاء، يتجلى بسمائه الرمادية، ونجومه الثاقبة. من هذا الذي يسوقه، ويدفعه بكفه الساخنة، ويجذبه إلى الخروج. ويزين اللقاء!!!

لعله هذا الذي يراقص الضياء فوق حافة الأفق ويتكئ على عيون.. كأنها العيون الرانية. أتكون أرسلتها، أو تلبست بها، أو أوكلتها بالمراقبة!!

تأتيك الأصوات المبهمة، فتختلط في سمعك كأنها نغمات هائمة، تحس كأنما الريح الخافتة تحمل ألحانا راعشة، كأن حفظة المكان من الجن والملائكة أرسلوها إليك لتسكرك.. جمعوا نورها فتجلى وضيئا. يختال في الأعالي ويسري رهيفا يحاكي الفراش في رفته، والعطر في رخته. من سلط الوجه في غيمته، فقبض على جفنيك واستل بؤبؤك!

وأنت سادر معه، تقفز محلقا معه، تطير سابحا حتى يكاد الفضاء يأخذك، فترى النجوم راقصات في معابر السماء. والماء كالرضاب ينساب كخيوط من جلين، وخداه – الوردتان– يغتسلان في اشتهاء ويزهوان.

وأنت تنتظر، أن يستدير الوجه ويكتمل.. مطعون في قلبك، فرحت سادرا تلملم العين والحاجب، والخد والشفة، والأنف والجيد، والدائرة.

تبتهل فيرحمك الإله ويجمعه. وجهك الساكن في غيمته يتجلى فيـــك فيرفعك، ترمم الوجع وتصنعه، فيصنعك.

يؤنسك حين يتجلى فيك ويغمرك، يباغتك ويسكنك.. تزفين نفسك كل ليلة، وتمتطين قاربك، وتملئين كأسك المراق فوق مخدعك.. وتتركين فم فارسك المنتظر، لا يطول ماء ولا يصيبه القطر.

ومد يدك أيها الغافي المنتظر وأرسل الريح إليها، حملها طرح روحك

وابتهل، وافتح الشباك.. وانتظر..

لعل حبك البعيد يعالج صدرك العليل.. ويلج..

هبت رائحة عطنة محملة برطوبة مالحة.. فضغطت عليه، فانتبه.

لاح الخلاء أمامه فسيحا معتما، وغطشت أعلى البيـــوت الواطئـــة فاحتجبت.. ووصلته أصوات صحراوية فارتجف، ما الذي جعله يبتعـــد، وهو الذي كان يقصد الطبيب.. ويطلب الدواء؟.. لكنـــه الآن يواجـــه العتمة.. ولابد أن «صلاح» يتضجر من انتظاره.

مغرم بالتجوال في الدروب الضيقة، وتتقاطع في ذهنه فيعلق به بيوت الزوايا.. وأبوابها المتواجهة. ويحصي الأعمدة المطفأة ويقول في إغراء: لو ألقيت عليها عباءة باتساع المكان لتحولت إلى ســـراديب تحـــت الأرض

يضحك صاخبا: ولن يراك أحد، وأنت تمشي كالعسس. ويؤكد وعيناه تومضان: الأولاد العفاريت يتعمدون تخريب الأعمدة حتى تبدو السكك غارقة في العتمة.

ويروح يحصي الأماكن ويرسم لها خارطة تظل لابدة في عقله، يظهرها حينما يهب في حالات كدره والليل في هزيعه الأخير داسا قدميه في المداس.. ويمضي يجوب الطرق.

يكثر تواجده في البرحة الواسعة. يقتعد العنجريب في المقهى الكائن بطرف السوق ويرمق الإماء من النسوة وهن يجلسن على مقربة من المقهى، يعرضن بضائع رخيصة، أغلبها أثواب ومفارش ومسابح، وصنادل وقوارير من العطر.

يدفع صلاح بمبسم الشيشة في صدر من يحادثه.

– الأمة سافرة الوجه، حاسرة الصدر.

ولا يزجرها الآمر.. هل!

ويصمت، ويداوم النظر متطلعا لصاحبه الذي يهرب منه ويردد.

– ربما لأنها أمة.

ويروح يصخب في جلبة حتى يلفت الأنظار إليه...

تدفعه الهمة أحيانا فيبادر بفعل يوحي.. بنشاط طارئ يزيح به بلاده تسري في مشاعره.. وكدرا يعتريه حين تتأخر رسائل امرأته.

كان قد شعر برائحة العطن تهب عليه وهو يقف أمام صنبور المياه ليغتسل للصلاة.. ومع أنه يرتاد المساجد نادرا إلا أنه يسبغ الوضوء كأنه يغتسل.

زكمته رائحة أعقاب السجائر التي يرميها مختار ويظل ينتظر وشيشها حتى تنطفئ، يتجاهل الضرر المصاحب، وأسراب الناموس التي ترسل طنينها في هباتها المتواصلة.. والنمل الصحراوي الأسود ينخر الأركان ويضيف إلى معاناتهم من الحشرات الأخرى مضايقات جديدة..

دفعته الهمة فخلع جلبابه، ومسك بالسلاكة، وظل يضغط حتى انفتح مجرى البلاعة فتسرب الماء وأزاح الفضلات، وملأ الإناء وصبه مرات حتى أزال الطبقة السوداء المخضرة وبدا القرميد الأحمر غامق اللون زلقاً.

وأتى بورقة وكتب:

ممنوع منعا باتا إلقاء تفل الشاي، أو أكياس الليبتون أو أعقاب السجائر.. ويجوز للمجنون فعل ذلك.

وعلق الورقة على الحائط، ثم أتى بقلم أحمر وكتب:

- توقيع إنسان يحب الروائح الطيبة.

حين قرأها مختار تحين الوقت وكتب بلون أزرق.. وبخط كبير.. ولو!!

ظلت الورقة معلقة حتى بهت لونها.. ولم يبق منها واضحاً إلا كلمة المجنون.

كان صلاح يرى أن وجوده يتحقق في وجود الناس. ويردد وهو يشير إلى صابر في حدة كأنه صبي يعلمه..

– ما سمي الإنسان إلا لأنسه.

يهرب من الضغوط التي تصيبه حين ينفرد بنفسه.

ويظل يرتل.. دخلت معبدي فطردت سكينتي..

حين يسمعه مختار يردد عبارته عن المرأة التي اقتحمته.. يقفز واقفا ويهرول تجاه غرفته ويأتي «بالكاسيت» ويعلو صوت أم كلثوم صادحاً.. فترتخي مشاعره.. لحظتها يستعد صابر لعمل الشاي وإحضار مكسرات مملحة وحبات من التمر.. ويشهد حوش البيت صخبا عاليا وضحكات تتوالى وخبطات قطع الطاولة تتعالى في صوت يصك السمع.

أحيانا كان يطيل المكوث في البيت.. ينتهي عمله في وقت الظهر فيترك المدرسة. والزهراني، وشرب الشاي، وحديث الذكريات.. ويؤجل تصحيح الكراسات، والإجابة على أسئلة الطلبة.. ويمضي في هرولة كأنما

تسوقه مشاعر مضطربة، فيظل يتلفت إلى أن يغيب، وكأنما يتحين فرصة يخشى أن تفلت منه.

وصابر لا يعود إلا متأخراً، يتلكأ، وينشغل حتى يكاد يكون آخر من يغادر المعهد، مع أنه ملول وهاجر للمكان.. يضيق بالفراغ، والصـــمت القابض، والجدران الكالحة.. ويتمنى لو يستطيع قضاء اليـــوم بطولــه في الخارج خاصة حين يغيبان عن المكان.. ويبقى وحيدا في مسكنه.

حين دخل البيت مبكرا على غير عادته شـــاهد صـــلاح بملابســـه الداخلية وعلى رأسه منشفة مبلولة، يلف الحوش – والشمس المتعامـــدة ترسل شواظاً من لهب– يتقارب من الجدار المجاور، يتباطأ ويتأنى، يتوقف ثم يطوح برأسه وينتقض.. حتى خاله محموماً.. فهرول إليه..

وصلة صوت نسائي ناعم قادم من البيت المجاور. أدهشه أن تشمله راحة عميقة أرخت جسده وألانت ملامحه فتـــدلت وانســـحب ناحيـــة الحجرة.

أحس أنه ضبط متلبسا فرنا إلى صابر وهمس في تنهيدة مصاحبة.

– حتى لا أنسى صوت امرأتي..

راح يحدثه عن الصوت النحيل الذي تبوح رناته ومخارج حروفه عن تأفف وضجر، وتحمل تردداته العالية وإمالة أواخره جـــرأة واقتحامـــا، وخطفة الصوت الممدود تنبئ عن حس وحشي كامن.

بانت ملامح الذهول على وجهه وهو يستمع إلى تحليلـــه للصـــوت الذي سمعه، وضحك صابر واصطاد انكسارا في العـــين وقـــال في نـــبرة حرص أن تكون مريحة.

– كأنك تخصصت في الموسيقى.

أشعل سيجارة وتملى دخانها:

– للصوت مقامات.

أراح جسده على السرير واتكأ على الوسادة:

– وللمرأة مقام معلوم.

سافرت عينه مع آخر خيط يتصاعد من سيجارته.. وبدا كأنما يدخل في خباء يشف عن رجفة محتوية.. وشفتاه تواصلان الحركة.. والتمتمة.

مقام صوتها لدي فوق مقام. تتداخل فيه نغمات وتتشكل .. وحـــين ينطلق يعطيك براحا متسعا فتطير محلقا.. تتسمع إلى الأعالي، والملائكـــة تصدح بنشيدها العلوي فتذوب رقة، وتنحل عذوبة، وتتبدى كموجـــة منسابة لا تعرف لها حدوداً.

وحين تدهمك تشعر كأنها تسري من وريد قلبك، تحمـــل الـــدفء والري والضغطة الخانقة، الناعمة.

لحظتها أتذكر هذا الحب النفرد الذي يقتحم ولا ينتظر..

أسرع صابر فصفق بيديه، وفتح – في ضجة– النافذة العليـــا وأدار مفتاح الراديو.. وخشى أن يطوله الحنين. فعلا صوته وهو يقتـــرب مـــن وجل.

– صوت من الذي حرك المواجع!

تلفت صلاح في نشوة وهو ينبه إلى الصـــوت النحيـــل، الجـــريء المتأفف، الجائع الغازي القادم من بيت الحارس البليد على محفة من رطوبة زلقة.

– الزوجة الجديدة.

ومع أن الكلمات التي نتحدثها قديمة وتراثها موغل في القدم، فلقـــد اندهش من الوصف الذي تمدد وتنوع ولف وحول المعنى.. ورأى صابر في ملامح الانفعال المصاحبة إضافات إلى المعاني القديمة، ووشـــي وجهـــه الواقع تحت وطأة الغياب الحسي بتطهر ما، وبتحرر من القيد الضاغط.

وتذكر الحارس في حسيته الجائعة وهو يدعوه لوليمة العرس.. كـــان الوميض البارق يتر من عينيه، ويده تمسد لحيته في تأن متعمد، وعضلات وجهه مشدودة، ولامعة، وشفتاه تنفرجان عن بسمة منضـــغطة كأنـــه لا يريد إفلاتها وهو يجيب على تساؤل عفوي.

– لكنك متزوج.. وولدك متزوج.

– زوجة صغيرة تجدد الشباب.

ومد يده، وبسط كفه ثم نغزه بإصبعه وضحك:

- جدد حياتك.

وألح عليه أن يأتي وقال في عبارة كالحكمة:

- المرأة عشق الرجل

لم يكن يتوقع من الرجل أن ينبسط في أمور خاصة كهـــذه، فهـــو لم يكن منفتحا عليهم بالقدر الذي يسمح بذلك، إذ حرص على أن يظـــل بعيدا قدر استطاعته، وصنع مسافة حاجزة لا يتجاوزها. فالقلوب تنطوي على مشاعر مبهمة ومختلطة وإدراكها أمر يعجز عنه. ولم يبق سوى البعد عن مكاشفة النفوس، وطرح الأسرار جلبا للراحة واتقاء للقلق النـــاتج عن مزاحمة الآخرين.

ورضي عن شعوره بالأمن.. مع علمه أن أمن كالنبذ.

في أوائل عمله بالمعهد – وكان قد تأخر قليلاً كعادتـــه– اســـتوقفه الحارس وحادثه في اقتحام، مرددا ا سمعه من الطلبة عن إخلاصه، وصدقه في العمل الذي يصل إلى الضجر.. هؤلاء العفاريت لا يعجبهم العجب.. ونصحه في ود مشوب بنذير ألا يتأخر كثيرا في الانصراف.. فالألسنة لا تكف عن الخوض في السيرة. ثم ضحك، مبتلة أسنانه بروالة صـــفراء.. وأشار إلى أنه يضطر إلى الانتظار ليغلق بوابة المعهـــد.. وكفـــاه مكوثـــه الطويل في الأيام التي يأتي فيها المعلم سعيد ليدرب فريق الكشافة. وأنتم والله أمركم عجب.. تعلمون أنني معرس جديد، وتظلون تسهرون حـــتى

الفجر، ولا أرى أحدا منكم يصلي.. والله لـــولا الغامـــدي لأوقفكـــم القاضي.

وجذبه فجأة وأصر أن يشرب الشاي معه.

ونظر إليه فجأة وقال:

تعرف عبد العزيز..

-عبد العزيز من؟

- المصري!

نطقها في قوة مستهجنة، وطالت سحنته قتامة رمادية، ولاح أســـي يقبض على عينيه ويشد تجاعيد جبهته، وظلت يده بإصابعه المتسخة تهف وجهه كأنما يبعد ذبابة ملحة تناوشه ثم حدق فيه بقوة.

كان الأمر كالصاعقة.. حين دخل الرجل على زوجته.. رآها مكومة في زاوية الحجرة، تحوطها غمامة ســـوداء مضـــببة وفرائصـــها ترتعـــد وتشنجات تأتي وتروح في متوالية سريعة.. وبدا أنها غابت عن الوعي، لم يدر بخاطره مثل هذا الأمر أبداً.. يقولون دائما إن هذا البلد آمن، وأمن المقيم فريضة واجبة، مثل المواطن تماماً.. وتوقف قلبه. وتصـــلبت عينـــاه وراح كالغريق يلاطم الهواء والسواد والعجز كي يصل إليها.. في ركنها النائي عنه.. والذي يفصله متران لا يزيدان..

أدرك الأمر. وظل يرمح في البيت.. لعله يجد أثرا.. أو يعثـر علـى شيء.. وظل يكظم القول.. من فعل فعلته؟

قطعت السكين كبده، فاهترأت وشعر بأن دمه يفيض ويعبر الجلـد ويغمر المكان.. والدماء تنز منها.. والوحشية بادية في خمـش الوجـه وقطع الثوب، وانكشاف الكتف، وانحسار الثوب، والكدمات المدممـة.. عاجز هو عن فعل شيء.. ألجمه الموقف، وأرعبه الخوف من ذيوع الأمر، وأهمه أن يعيدها إليه.. ويدخلها قلبه.. وتقدم في ثانية كالدهر، أخذها في حضنه. لملم أشلاءها، وبكى. جرفه دمعها فاحتجزه وظل يحتضنها. مـتى انتهيا؟.. وما الزمن الذي قضياه ملتصقين حتى كاد الجلد يتسلخ منـهما وهما ينفصلان ليدبرا أمرهما؟

في إجازة نصف العام سافرا.. ولم يعودا.. ولم يطالبا بحقوقهما الماليـة والمعنوية.. كانا يعلمان ألا أحد يقدر على المساعدة، وأن سـفارة بلـده غائبة عن الوعي ومنتهكة.

كاد يشتعل.. صب عينه في عينه.. ونفذت أشعة مسـنونة كاويـة فخطف الحارس الكلام، وقال:

– كانت جميلة.

يعلم الله.. إنني نصحته أن تستر الوجه.

واستدار، وأحبك غترته.

– ستر الوجه يبعد الغواية.

وعاد يهف بيده على الوجه كأنه يطارد ذبابة، وحين أخـــبره أهمــا سكنا نفس المكان الذي يكتريه حتى داخله هاجس بأنه لا يجهل الأمـــر تماما.. أزاحه من أماه بقوة أفزعته. كيف واتته القوة لترمي بالرجل على الأريكة وهو الضخم المدكوك.

ومضى رامحا إلى حجرة المدرســين. قطــع درج الــدور الأول في خطوتين، ورمى بالحقيبة، وأحدث ضجة وهو يفتح أبواب مكتبه، مـــاذا يريد بالضبط! ما هذا الشعور الضاغط الذي يحتويه ويعتصره! من يضمن للمغترب أمنا بسيطا يكفل له أن يأمن في نومته!! ألا تنسرق أحلامه! أو تنتهك آمال هشة صغيرة دفعته إلى المجيء!! من يخبر المتربعين على دست الحكم في بلده أنهم طاردوا أبنائهم وأول المنتهكين لهم.

وقبل أن يجلس رآه «عامل الشاهي» فانتفض قائما. لم تفته حركـــة الطالب وهو ينسل كغصن مارق.. لاح الوجه ممتقعا، والغرفـــة معتمـــة، والقلب المحتجز دمه كالحجر. ركل غترة العامل وهو يمضي في طريقه إلى الباب نازلا.. ليستقبله فضاء معتم وسماء رمادية تلقي بمخاوفها فتصـــيبه بالوهن والعجز.

ارتفع الصوت نائحا ومتمردا، يضرب الجدار الفاصل بقوة، ثم يهوي إلى الصمت. فتتعجب كيف لمثل هذه الرجعة المدوية أن تستسلم وتذوب

فجأة كما هبت فجأة فتحدث تكوينا لحنيا نادرا.. فتبدو رنة الصوت كلقلقة الطائر الحزين في أواخر غبشة الليل وغطشة الفجر.

افتقد الليل نكهته الرمادية. وسكونه العدمي عقب انطفاء الصوت.. خفت اللزوجة ومال الهواء إلي لسعة خفيفة حملتها هبات شحيحة من ريح رطبة فاحتكت بالجلد، والوجه، والعين، وأصابع القدم وجلد الجبهة المغضن.. تغري هذه اللسعة النادرة اللائذ بكلته أن يرمي ملاءته، ويفتح بابه ناحية الحوش الواسع كي يلحق بذيل الهبات المنفلتة.. فهي كالصوت تهب ثم سرعان ما تنعدم.

وقبل أن يظهر «مختار» بملابسه الداخلية وسيجارته المشتعلة كان قد سبقه «صابر» إلى المقعد، مستندا إلى الحائط الجيري الذي ارتطم به الصوت وهوى.

غزا ضوء النيون على شحتة مساحة المكان وبدا منثالاً على هيئة سلوك وهمية كخيوط ناموسية واسعة، وأرسلت فراشات الليل وهوامه أزيرها وطنينها وهي منغمسة في الضوء، وقاصدة إليه.

وراحت العيون تحدق في الأرض والفتحات، باحثة عن الحشرة البنية المهدبة، أو العقرب الأسود في تربصه وقفزته.

ظل مختار واقفا للحظة، يرهف السمع. ويرنو إلى مساحة الحائط الصلدة.. حرك جسده في هزة مفاجئة واقتعد العنجريب.

تعودا على فلتات اللسان.

لو كان صلاح موجودا لقبع بجوار الحائط، كان غائبا كعادته بعـــد صلاة العشاء. يظل يدور في الأزقة أو يجالس تلاميذه الـــذين يعملـــون بالمحال، أو المقاهي المتناثرة.. حتى إذا دخل الليل وأوغل يـــدفع بنفســـه غصباً إلى الرواح.

لعبا الكوتشينة، وأكلا المكسرات، وعلا صوهما، وســـكبا – معـــاً الجاز في شقوق الحائط، وضحكا سويا وقال مختار..

– لعله يحجز الصوت.

وخبط بيده، وأبرز ورقة الكومي في صخب ثم همس فجأة..

– للشقوق سرها.

وحين دلف داخلا، وقبل أن يواجههم صاح مختار طالبا منه وقبل أن يخلع جلبابه أن يصنع الشاي عقابا له على تأخيره.

تجاهله، وارتمى على العنجريب، مد ساقيه في تـــأفف، وراح يمعـــن النظر فيهما. تابع صابر – بركن عينه– مختار وهو يرتب أوراقه خشـــية لعبة مباغتة فيربكه ويفوز.

رتب الأوراق وقال دون أن ينظر إليه:

– اصنع الشاي ولا تعتذر.

استقام جذعه وعير ساقيه ونطق في لهفة مدعمة.

– ألم يصلكما الخبر؟

توقفا فجأة، وتوجسا.

– لدغت العقرب محمد الأبيض في كفه اليسرى.

– متى؟

– بعد صلاة العشاء.

جأر الولد، وراح كالمجنون يتخبط ويصيح.. منادياً. ومستغيثا.. تجمع الشباب، ونصحت واحدة من الإماء بصنع لبخة.. الجلد يحمر في زرقة، والولد لا يقوى على الألم.. مدرس أولي صغير السن في عمر طلبة المعهد. طري العود.. من له بترياق السموم؟

كان الأمر صعبا والسكين تشق الجلد وتقطعه.. الدم يسيل، ويعتصره، ويمتصه، ويبزقه على الأرض.. «ولد الفقيه» راعي المقهى..

وخطف السيجارة، وأشعلها ،وامتص دخانها في لهفة..

– ولولا أننا وجدنا الطبيب في بيته ما كنا نعلم كيف ينتهي الأمر..

وقف صابر ونتر نفسه، وأحس بشعر رأسه ينفرد كالشوك كأنما الأمر حدث له، وظل يتحسس كفه.. ويظر حوله، ويخب في خطوته كأنما يخشى أن يصيبه مكروه، أو يخرج إليه من شق، أو يهبط عليه كالعنكبوت.. هذا الأسود القاتل.

أدار مختار نظره بينهما وابتسم ضاحكاً:

- لعل الولد محمد لم يصل فعاقبه.

تداخل صابر وصلاح يتسحب إلى غرفته، بلله عرق نابت وأرعشته قطراته المدورة وهي تنزلق على وجهه.. مدد ساقيه فوق العنجريب، واطمأن إلى كيزان المياه.. لكن من يطمئن إلى فضاء مفتوح لا يمنع الأذى أو يحجبه.

وتمتم في خوف حقيقي: الموت يلاحقك.

حرص كل الحرص بعد النصائح التي وجهوها إليه أن يراقب منسوب المياه في كيزان الصفيح، وأن يضع أوراق الشيح كي تطرد رائحته ثعابين الصحراء البيتية.. وأن ينفض جلبابه كلما ارتداه، وأن يقلب الحذاء، ويدقق في حناياه.. ظل يرتعب كلما جاء ذكره بذنبه القاتل، إلا أنه لم ير عقربا واحدا سقط في حيز الماء.

بل لم يرد واحدا منها في بيته بالرغم من الشقوق والحفر.. وعيدان البوص الساقطة من فوق السقف القريب من الحوش.

كل ما كان يراه ويخشاه نوعان من الحشرات ظل يترصدهما.. الحشرة المهذبة- أم أربعة وأربعين- وهي تظهر فجأة، تتلوى بأرجلها المشعرة الكثيفة وقرنيها الطويلين النافرين كهوائي راديو قديم.. وكان كلما يراها يسرع – هلعا – ويسكب عليها الجاز ويشعله، ولا تستريح نفسه إلا حين يراها تتكوم محترقة.

الحشرة الثانية.. تزاحمه كلما أبصرت عيناه حائطاً، أو بابا أو حاجزا.. «الورل» الذي لا تكف عيناه الرماديتان عن التحديق، ويتخفى بجسمه الرملي وسط الأغراض.. ترعبه نظرته وهو يطل من بين ألواح السقف المتآكلة، ومن شقوق الأخاديد التي ضربت الخشب بالطول. فيظل يظهر ويختفي في حركة تعجز اليد أن تطوله.

كل ما يقدرون عليه أن يحتاطوا فلا يتركون طعاما مكشوفا وأن يتأكدوا من الكلة وهي تحيط بعمدان السرير من السقف والأطراف وتحت الحشية الإسفنجية حتى يضمنوا نوعا من الحماية من الصحراء وحشراتها القاتلة.

ومع أن الهواء راكد وثقيل، ونشع برطوبة لزجة، والباعوض يطن في معزوفة متواصلة، إلا أنه لم يقو على التفكير في التخفيف من صرامة الكلة وإن حس بضيق في التنفس، فهو محاصر بلدغات الناموس «وعقرة» العقرب الصحراوي.

لن يخرجه من هذا الكابوس غير الوجه الذي بدا يستعصي عليه.

هل.. يشعر – وسط العيون المسبلة– بطعم الدمع وملوحته وأنت تبيت في ليل صحراوي موحش.. يجيئك النوم خلسة على محفة من الرعب الذي لا تغفل زوراته الدائمة.. لغرفتك الرطبة بهوائها الثقيل الضاغط! أتسمع – وهي تنصت لآهات أم كلثوم فوق حشاياها الوثيرة– جوقة الباعوض وهو يباغتك ويحتجزك كالسجين – إلى متى

تقوى على الاستدعاء.. والوهن أصابك، واقتحم خيالك.. ما الـذي جعلك تهرب، ولا تتجلي أيها الوجه المراوغ؟

جمعت الجمال، والجلال والمخاتلة، وفاض موجك المنسدل فاحتجبت، وداريت حلمك، كأنما جمعت بين ملاك وشيطان، وأدرت في القلب صراعا ظل يناوشك.. ما الذي جعلك تنأى عن خميلتك؟. هل أغرتك أطيار فحلقت بك.. أم وصلك الشعور بالخوف واحتجبت في هالتك ولذت بالصمت!!

الرعب.. يأتيك من حيث لا تدري ويطغى على خلاياك الواعية ويتلبس بك توجس يلازمك في صحوك ومنامك.

وها أنت تجد نفسك مسجونا في دهليز معتم، يحرمك من لذة النوم.

***

في خلسة الكري أراها تمد يدها إلي.. أطل في عينيها فألمح استجداء كالشجاذة، وتهدلا على الصدر لا يخفي شيئا.. وعريا واضحاً للفخذين.. وأتعجب من اليد الممدودة وهي تتلوى مع أنها تبدو كقطع اللحم الحمراء المشوية.

يواجهني الوجه المتسلخ.. بحرارة النيران.. وملامحه تضج بألم ممض.. وبدا المشهد في غاية القسوة والنيران تهب من أطرافها ولا تكاد تنطفئ.. الهلع الشديد الذي أراه في عينيها سكب الخوف في عيني. وتجمدت حائرا.. وهي تجأر بالصراخ، لكنني عاجز أن أخفف عنها آلامها.

أحاول أن أتوهم الشكل واستدعي الهيئة.. أتكون هي!.

لكنها ماتت منذ زمن بعيد.. من أخرجها من قبرهـا لتمـد يـدها الحمراء وتناشدني أن أساعدها.. أنقذها من لهيب النار؟ هل جاءها الخبر أنني قريب من الرسول فهبت من نومتها الأبدية تطلب مني الـدعاء، أو أهبها عمرة علها تتخفف مما هي فيه!!

شدتني بأمراس قوية. فلم أعد أطبق العين.. وشـفتاها الحمـراوان والمدممتان. تتفرجان عن همسة لا تبين.

– خذ بيدي.

يا ربي.. أتكون هي!.. هذه المستلقية على الأرض الخارجة من قبـو النار، الحابية على ركبتيها، المادة يدها المسلوخة.. أتكون هي!..

من الذي أخرجها، وجذبها إلى سطح الأرض، وأغرقها في النار، وهي العابدة، المصلية التي يضرب بها المثل في الزهد والمكاشفة!!

لعلها هي!!

كنت زميلا لولدها.. صادقته زمناً، وتلازمنا معاً.. وكنـت حـين أذهب إليه أجدها في غرفتها تبدل ثيابها وتطل في مرآتها وتمشط شعرها.. حتى احترت في أمرها، وتصورت أنها لا تكاد تجد وقتا للصلاة، وأدهشني ولعها بجسدها، وهي تبسط كفها عليه.. وتتوقف عنـد منـاطق تمعـن الضغط عليها... ثم تفلت – كالعمد– آهة ممطوطة تظل تتابعهـا حـتى

تتلاشى – وتشهق حين تراني، وتخبط صدرها بكفهـــا الـــبض وتقـــول كالمؤنبة:

– اتنحنح لما تدخل.

وتبتسم حين يعلو صوتها.

– خطرت على بالي.

وتمد يدها، فأمد يدي وأنا أكاد أذوب حياء يقيد نظـــرتي ومســـار عيني.

وتقبض على يدي، وتتملى وجهي، ثم تفرك خدي بأصبعيها:

– ليت ولدي خجولاً مثلك.

كان يحب اللهو والممازحة.. وكرة القدم، ونادرا ما أجده في البيت.

ينبسط كفها على رأسي، تتخلل أصابعها شعري الملبد وتجـــذبني إلى حضنها وتقول:

– ألا تطعمك امرأة أبيك!

وأشعر بفرائصي ترتعد، وهي تضغطني بجسدها ورأسي تطول صدرها البازخ، وأعطاؤها تتجسم فوق مسام الجلد، وأنا تارك جسدي كله لها.. ثم تأخذني من يدي كطفل صغير.. وأنا المقيد في الصف الأول الإعدادي وتجلسني بجوار جسدها المنطرح على الكنبة الاستامبولي.

تطالبني أن أنظر في عينيها، فأنظر في عينيها، وأرتجف.

– عيني كبحيرة الماء.

أرمقها.. فتشجعني.. وأنا لا أدري كيف تكون العين كالبحيرة. كدت أبتسم فوأدت بسمتي.. شجعتني أن أنظر، وأتأمل، ولما طاوعتني عيني لمحت ثوبها ينحسر عند الصدر.. وبدا كأن يدا خفية تسحبه في خفية.. حتى إذا لاح لي غضضت بصري..

وحين ضحكت في مماطلة، هويت به عليها فهمست:

– أوجعت بدني.

واحترت كيف أرد، فظللت رانيا إلى الذي يتكور فوق الصدر كرمانة ناضجة.

– من يداوية!

وزامت في همهمة كما تزوم قطة وهي ترى قطا يقاربها. مدت يدها وشدتني.

– أنت تداويه.

وباغتتني رعدة هزتني.. وطافت بذهني لامعة كالبرق صورة أبي وهو واقف على عتبة الباب يدق بعصاه.

نترت نفسي مرتجفا وأنا أنظر حوالي، رامحا نحو الباب وأنـــا أردد.. أبي.. وتضحك في إمالة صوت منغم:

– أبوك في طنطا.

وأندهش كيف تعرف بسفر والدي وأنا أجهله.. وكيـــف زاحمـــتني صورته كأنني أراه عياناً.

تسقيني شرابا بطعم العناب وتأخذني صاعدة بي إلى السطح أساعدها في تبييت الدجاج.. وقبل أن تطلقني أكون قد أكلت بيضتين، وأخـــذت تعريفة وملبسة.

وتمتد يدها، تفرك أذني:

– أقطعها لو حكيت لأحد.

وتهتز ضاحكة:

– غدا... في العصر تعال لتأكل المشلتت مع صاحبك.

وحين آتي في موعدي أراها تنهض عن سجادتها وتتملى نفســـها في المرآة.. ولا أجد صاحبي.

ظللت أتردد عليها حتى وجدت يوما ببصحن دارها رجلا كنت أراه يلعب السيجة أمام المسجد بعد صلاة العصر.. أخبرتني أنه ســـيتزوجها على كتاب الله وسنة رسوله.

وقبل أن تغلق الباب ورائي.. حذرتني من المجيء مرة أخرى.. غامت الدنيا في عيني وراحت تلاطمني..

كنت معها أحس أنني أحيا.. وأن أحـــداً يتلـــهف علـــيّ، وأنـــني مرغوب.. وكان شعوري تجاهها مختلطا بين الأمومة وبكارة الصبا.

ولزمت الدار أياما لا أخرج ولا أكاد أطعم شيئا.

تعجب والدي، ثم ضاق بي، وظلت زوة أبي تناوشني.. وتخادعني كي تعلم ما بي.. لكنني حفظت سري وقبرته داخلي..

وها هو يعود بوجهها المسلوخ ويدها المحترقة.. وينكـــأ الســـرداب المملوء بالخوف.

هب فزعاً، يستعصي عليك النوم والجلد المحترق يتبدي أمام عينيـــك ويجلدك.

يأتيك نباح الكلاب من الخلاء البعيد ويخترقك عويل كأنه النـــدب على الموتى، يأتيك متقطعا من خلف الجدران النائبـــة حيـــث تتـــراكم النفايات.

أنبأك الأولاد في الصباح وأنت تسألهم.. أن بنات آوى يمـــرحن في هذا المكان ويظللن ينتحبن كأنهن فقدن عزيزاً عليهن.

ويبدو في تراجيعاتهن كما لو كن يلتقطن أرواحا هائمة ظلت رجوعها إلى مقابرها، فظلت تطلب دفنها وسترها.. ثم يغرقن في صمت مريب.

يوقظ الصمت الراكد فيك، وحولك شعورا بالخواء.. خواء بدأ يعتريك، يفقدك انسجاما سعيت أن يتحقق. وأنت تجاهد أن تدخل في منظومة الكون حولك.. ما الذي أفرط العقد وأخل بالنظام؟.. أهو البعاد الذي أوجع القلب وأرهق الخيال.. فاستنمت إلى الرتابة وغابت عنك لغة الحلم!!

***

حفل اليوم المدرسي بنشاطات متعددة، كان من أهمها الكلمة التي ألقاها الغامدي على الطلبة في طابور الصباح بمناسبة اليوم الوطني.. أشاد فيها بالأمن والأمان الذي تنعم به ربوع المملكة، والعدل والمزيان القويم الذي يساوي بين الناس جميعاً.. وأكد في كلمته على أن الحكومة – رعاها الله– والقائمين على شئون الأمة، لا يألون جهدا، ولا يدخرون وساعا لخدمة الأمة، والسعي الدءوب لتقدم البلاد إلى الغاية التي يتغياها الوطن ويتمناها أبناؤه.. وهم حريصون على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله في منهاج سياستهم وحكمهم.. إنهم يبذلون في سبيل ذلك كل الإمكانيات المتاحة لتأدية الأمانة على خير وجه وللتمسك بصحيح الدين.. وترك البدع ومجاهدة البغي.

ولوح الغامدي بيده، وأخذته حدة مباغتة وهو يردد في سرد طويل الإنجازات الكبرى التي تمت في مجال التعليم وحرص المسئولين على إشاعة التعليم في أرجاء البلاد.. أطرافها وقمم جبالها.

ثم علا صوته وبدا كأنه يصرخ وهو يردد عبارة أبي بكر «.. إني وليت عليكم ولست بخيركم..».

وراح يرصد مواقف الأمراء والأسرة الحكمة التي ما وضعت يوما حاجزا بينها وبين المواطنين: «فلا غرو أن يلتحموا مع الناس في نسيج واحد وهم الذين يرفعون القرآن دستورا للحكم والعدالة شعارا سائدا بين الناس مصداقا لقوله تعالى: «.. وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل..».

توالت الكلمات، والقصائد.. وتقدمت الصفوف بيارق وأعلام المملكة. ثم بدأ الطلاب في ممارسة أنشطة رياضية متعددة، فقامت مباريات في كرة القدم، والسلة، وتنس الطاولة.. ولتنامي الشعور بأن اليوم سينقضي في الاحتفالات، قام المدرسون الوطنيون مع الطلبة بتقديم رقصة «العرضة» التي لقيت استحسانا كبيرا من الجميع، وأثارت عددا من المتعاقدين وهم يشاهدون الإيقاع الحركي المتزن، في مصاحبة لشعر نبطي «شعبي».. قصير التفعيلة تواكب سرعته وإيقاعه سرعة الحركة، وخبطات الأرجل الموقعة.

اشترك صابر في لعبة البنج «كرة الطاولة». فهو يجيــدها منــذ أن تعلمها بالمرحلة الإعدادية.. ولاح إنجازه واضحا وهو يناوش الطلبة حتى تصوروه أحد أبطالها.

كان قد شاهد الحفل مع هيئة المعهد وطلبته مسئول التعليم وبعــض الإداريين بالمنطقة، ولاح «مختار» بينهم بحكم عمله موها للاجتماعيــات ونهض وارتجل كلمة موجزة عن بداية الحكم السعودي، وكيف استطاع الملك عبد العزيز أن يوحد البلاد في بناء متماسك بعيدا عــن التعصــب والقبلية.

وفي هذا اليوم – أيضاً – قدم سعيد الموجه بالإدارة تدريبات كشفية أبانت عن مهارات الطلبة في الاعتماد على النفس.. ومواجهة الخطــر، وكيفية التعامل مع الموقف المفاجئ.

أثنى المسئول على ما رآه من أنشطة ومضى مشيعا براحــة حقيقيــة شعر بها العاملون جميعاً.

توافد المدرسون إلى حجرتهم الواسعة، يستريحون قليلاً، ويتسامرون ويحتسون الشاي.

الحجرة واسعة.. تقع بالدور الأول، نوافذها مشرعة، ومكاتبها مــن الصاج الملون.. وأرضيتها مفروشة بالحصير الملون.. تعلوه قطع من أكلمة منسوجة من الوبر.. والصوف.. ملساء، خالية من الرسومات، إلا بعض الدوائر والخطوط المتقاطعة.

كان الزملاء من السودان، والعراق، وفسطين، وسوريا يمسحون وجوههم بمناديل ورقية، ويتخففون من نعالهم، ويحررون الجلاليب والقمصان من الأزرة الضاغطة على العنق أو الصدر.. جاء حديثهم قليلا يتناول بإجياز أبرز ما حدث في الاحتفال.

وضع «عامل الشاي» صينية من الألومنيوم اللامع ورص فوقها عددا من الأكواب الصغيرة على هيئة دائرية وفي الوسط ازدهى البراد ببخاره، الصاعد، وعيدان اليرحان الجبلي تتدلى من قبضته لمن أحب الشاي برائحته.

وكانت الشمس ترسل جذاذاتها اللاهبة عبر النوافذ المفتوحة فتحيل هواء الغرفة إلى سخونة رطبة لزجة لم تفلح مروحة السقف من تخفيف حدتها، أو تلطيف الهواء فيها.

كان صابر جالسا على مكتبه ينظم أوراقه ويتابع فلتات الأحاديث إلى أن دهمه صوت «محفوظ» الفلسطيني وهو يرتشف الشاي في شفطة ممطوطة زاعقة.

حين رفع رأسه وجده يحدق فيه بقوة حتى خال عينيه خرجتا من مكانهما.. داخله هاجس مبهم، وطفا إحساس بالمرارة شمله، وتيقن أن الخبث وسوء النية يطلان من النظرة المحدقة والتي سرعان ما تحولت إلى بسمة ماكرة.

قال وهو يركن الكوب في خبطة أحدثت صوتا وأراقت قطرات من الشاي:

- استمعنا إلى كلمتك في الصباح.

فوجئ فقال في عجلة:

- لكنني لم أقرأ شيئاً.. أم أنك كنت غائباً..

قبضت يده على الكوب ولاحت أصابعه ترتعش...

- تريد أن تعلمنا أن الغامدي يكتب بمثل هذا الأسلوب، وهذا الترتيب.

علق السوري في خفة كمن لا يهمه الحديث.

- المسئول نفسه يعلم ذلك.. الأمر عادي.

عاود محفوظ النظر في استخفاف ومراوغة.

- على العموم الأسلوب جميل.. والكلمة تعلي من قدرك.

أدرك السوداني – بلباسه الوطني الذي لا يتخلى عنه – أن «محفوظ» يتعمد الإثارة، والإساءة.. ويخشى على مكانته عند الغامدي. فهو يدرك تماما أن مثل هذه المناسبات وما يقال فيها.. يحسب لأصحابها..

شمر كم جلبابه حتى الكتف، وقال:

– أنت يا محفوظ.. ألا تقدم له الكثير.

ابتسم له لكنه واصل:

– زين دروسك الخاصة للأولاد.

وقضاء المصالح لهم.. بلا مقابل..

أشاح محفوظ بيده لكنه تابع في إصرار.

– لا يعلي ذلك من قدرك..

أليس ذلك سببا في بقائك كل هذه السنين في هذا المنفى!

انفلت العراقي مشدوداً.. وعلق في غضب بدا كأنه مفتعل:

– خففوا الحقد قليلاً.. الكتابة موهبة.

وهو يتوارى من فتحة الباب.. أطل برأسه:

– ما دخل صابر في هزيمة 67؟!

خبط محفوظ بيده، ولوح في قوة فأراق الكوب:

– أضاعونا.. والله بالكلام.

شعر صابر بضيق شديد، وهو الحريص على الابتعاد عن الحديث في أمور تثير الهم، وتأتي بالخلاف، وأدرك أن محفوظ يستدرجه للوقــوع في الخطأ.. ثم استغلاله للإساءة إليه.. لكنه مصري، يزهو بمصريته. ويحــب

وطنه، وإن كان يكابد مرارة الهزيمة.. ويدين السلطة الحاكمة، وعزلتـــها عن الشعب وخداعها له، وقمعها له، وقمعها لإرادته.. إلا أنـــه يـــرفض التشفي وإرجاء ممن رهنت مصر قدرها بسببهم.

صوّب نظره في قوة وقال في بطء مقصود:

– لا يحارب شعب بالنيابة عن شعب آخر.. وآن لكم أن تفعلوا.

عقب السوري في تفكه:

– ولا بالوكالة!!

ضحك السوداني ملطفا لجو الجدل:

– لو كان الأمر بالوكالة لبادر الغامدي إليها.

ورن صوت عال. آت من ركن الغرفة:

– قادر عليها والله

مشت الضحكة حتى وصلت إليه فضحك.

كان عامل الشاهي في مكانه يتابع ما يجري من أحاديث ويصـــوب بصره تجاه محفوظ كلما هم بالكلام، فاتحا عينيه كأنما يحثه ويستزيده..

وتهيئوا للانصراف.

حين جهز صابر نفسه لمغادرة المكان، وجده واقفا أمامه، يرمقـــه في إطالة رانية.. أهمله ونهض.. فاحتجزه بكفه وقال:

– شاي؟

ود لو رفض، لكن لم يمهله فصب الشاي الأصفر في الكوب وأحدث رغوة مفضضة.. صب لنفسه كوبا آخر.. واقتعد مقعداً مجاوراً:

– الحرب خربتكم.

أومأ برأسه ونطق في همود:

– إنها الحرب.

أبرقت عيناه:

– فعلها عبد الناصر ومات.

انفرجت شفتاه عن أسنان صفراء مثلومة:

– طردوكم علينا.

أصابه خرس مفاجئ وقبض الذهول على وجهه، وظل الكوب معلقا في يده وهو يتابع العامل في حديثه السام:

– بالله نحن أولى بالمال منكم.

وتلفت العامل يمينا وشمالاً.. وعاود الحديث وهو يصب الشاي:

- نعم.. نحن أولى به.

راح يتحدث عن حاجتهم إليه، وأنه يقوم بعمل تربوي مهـم وهـو تعليم الأولاد.. وتدريبهم ليتخرجوا معلمـين.. سـيحلون يومـا محـل المتعاقدين.. وأن الناس في بلاد الدنيا يتبادلون الخـبرات، ويسـتعينون بالكفاءات ليعملوا لديهم.

وليس في ذلك عيب.. والله خلق الناس أمماً وشعوباً ليتعارفوا. جمـع الأكواب، وأعاد رصها فوق الصينية، وبان عليه غضب لون صوته بحدة.

- أنتم تأتون لتأخذوا أموالنا.. نحن أحق بها منكم.. ألا تفهم!

ودلو أحكم قبضته على عنقه.. أو أخرج لسانه من فمـه.. فكـواه ليظل عاجزاً، لكنه يلتمس له العذر، فلهجته تبدو كشكاية، أو توصـيف حالة.. افتقدت موافقة الحال.. والدراية بآداب الخطاب.. يصبح الأمـر قاسيا لو انطوت القلوب على هذا الشعور العدائي.

- نحن والله افقر منكم.

يضيق صدره به.. لا حياء ولا مراعاة لمشاعر.. لعله يتصـور أنـه يتقاضى راتبا كبيرا، إن راتبه يكاد يقاربه..

وكأنه استراح فراح يهتز في مشيته، ويعدل من غترتـه المعتمـة.. وينسحب ناحية الباب.

***

وأنت تطوي الدرجات طيا كأنما يدفعك جني عفي.. ويأخذك الخلاء بعيداً. نائبا عن معهدك، تاركا. وراء: سهاماً مسمومة.. وقلوباً فاسدة.

تدب رجلاك بخفك الجلدي على أديم الرمل، وثبج الملح يعلو كفتافيت الجير المطفي.. الرمال أمامك، والمعهد خلفك، ولم يعد يسعفك إلا الوجه الذي يفرش النور عليك ويسكب الهوى منورا. ينطوي الأفق على مرآة فيأتيك طائعا. غزاك واستكن فيك وأدمن الإدمان بالهوى.. من أجلها أتيت، ليلك الطويلك كهف معتم.. تراوغين وأنت تتبدين فيه كنجمة سماوية.

تناوشك برفة العين، تراها وهي تطوح بكفها فترى خاتمك ضاويا يبعث الألق.. تسرع نحوها، فتمعن راكضة ما الذي يدفعها إلى النأي والبعد عنك؟ تجري وراءها صائحا.. سجّانتي..

كيف طاوعك القول فبدوت ضعيفا، وهشا، وهي التي قطعت المسافة إليك رهواً.

كنت تسبلين عينيك، وتشرعين رمشك، وأنفك الرهيف يرتعش، وتجأرين.

– سجاني الذي نأي وابتعد.

تلك سفرتي، فخذ قلبي معك.

كان قلبك الريان يفتح السدود للمياه لتنهل الزنابق وترتوي.. لكن الرياح تهب، تسفي من أمامها النخيل والقلوب الموجعة.

وها أنت محاصر.. ومتهم..

ينظرون إليك نظرة الذي ينتهب..

فأنت الآن تسرق مالهم..

وتخطف أرزاقهم..

أصابته رعشة قوية.. حتى خشي أن يكون أصيب بضـــربة شمـــس.. أحكم نظارته الشمسية..

تأخرت عودته.. ولا يزال قول الرجل «نحن أولى به..»

يرن في مسامعه.. والوجه الخبيث يتراءى له، ويتر منه خبث مسموم.. كاد يوقن أنه مدفوع من محفوظ.. لم يبق إلا الرواح..

البيت مبتغاه.. حاضن همومه، وساتر أحزانه.

أخذته قدماه حتى انتهى إلى رأس الشارع الضـــيق الـــذي يصـــله بمسكنه.. في التفاتة سريعة رأى امرأة اسبغت عباءتها تســـير في هرولـــة، وصدرها البازغ يدفعها إلى الأمام.. كأنه يقودها.

تباطأ فدنت المسافة..

نحيلة القدم، الوجه سافر إلا قليلاً. حين اقتربت أحكمت حجابهـــا.. رأى عينين محددتين برمش أسود طويل وبؤبؤين يبرزان في توهج.

فاحت رائحة زكية، فانتعش.. تريث قليلاً وتنفس بعمق.. صـــدرت منه كلمة «الله» دون أن يدري، أسقط قلما وانحنى يلتقطه.. تجاوزتـــه، ثم تلفتت، خيل إليه أنها تبتسم، أدرك ذلك من حركة العين ورعشة الجفون.

شدت الحبل بباب البيت المجاور.. ودخلت.. أتكون هـــي صـــاحبة الصوت الجائر.. المتمرد! أتكون هي!

كانت الأرجل تضغط بقوة على أديم الأرض السبخة.. والكعـــوب تغوص.. في البلولة، والأصابع تخمش وجه الرمل، والأيدي تقبض علـــى الحبل المبروم الذي يبدأ منهم وينتهي في ماء البحر.. جذبهم الخلاء والماء والقمر الزاهي في تمامه،، الرغبة في الصيد وسماع الأغاني.

لم يكن الأمر مثيرا.. كثيرا ما شاهد حفل الصـــيد لـــيلاً أو وقـــت الغسق.. تنحى صابر واقتعد نتوءا على حافة اللسان وراحـــت عينـــاه تتأملان انكسارات الضوء السماوي على تموجات المياه.. وأذنه تلـــتقط همهمة الشفاة، ودبدبة الأرجل.

فجأة ارتخى الحبل ثم انخطف خطفة قوية فسقط الـــبعض وتشـــبث آخرون به دافعين أرجلهم إلى الأرض التي تسوخ تحتهم، وجاذبين الحبل بما بقي لهم من قوة.. لم يمر عليهم موقف كهذا من قبـــل. ولم يســـتعص عليهم صيد كهذا الصيد.

كاد اللهاث يأخذ صدورهم.

زعق صلاح فجأة وقال: عندي الحل.

جرى ناحية «دبّاب».. ممدوح الفلسطيني، مدرس التربية الرياضية الذي لا يكف عن الصيد.

أداره واقترب به، طالب الممسكين بالصنارة الهلب أن يحكموا قبضتهم من الوسط.. عقد الطرف بالدباب وأحكم عقدته ثم ركبه وانطلق، ضغط على البترين فقفز من «غرزة» أعاقته وجر خلفه الصيد الثمين.

بدت في مساحة الرؤية رأس ضخمة لنصف سمكة.

تنزف الدماء وترتجف رجفتها الأخيرة.. كان القرش قد التهم نصفها الأسفل، فغط الدماء سطح الماء..

علت الصيحات، وتهاوت الأجساد، وكف «الدباب» عن الهدير.

قام «ممدوح» وعلق نصف السمكة من خيشومها في عامود من الخشب.

كان الليل يوغل، والقمر يتجلى بهاؤه، والأيادي تملأ الكيزان، تسكبها. فبدت نظيفة لامعة جاهزة للإعداد.

أضاء «الإتريك» المكان ووزع ضوءه، شبت النيران في الأعواد الجافة ومشت رائحة الشواء حتى طافت بالخلاء فتداعت القطط والكلاب وهوام الليل.

قبض مختار على يده وأنهضه.. جلسا على جرف اللسان. امتدت الساق ولامس القدم وجه الماء.

قال مختار وعيناه تنسكبان فوق حصيرة المياه الهادئة:

– صيد السمك غيه.

وراح يحدثه عن هوايته القديمة التي أخذت منه وقتا طويلاً وممتعاً.. وعن الفضائل التي خرج بها كالصبر، وكظم الغيظ، والتمسك بالأمل، والرضى بالنصيب.

– يعطي بسخاء... ويضن بقسوة..

كانت وقفته غالبا على كوبري عباس ناحية الجيزة.. يحضر معه ديدان الطعم، والصنارة ذات الغابة اللينة، والحبل الحريري الرفيع والغمازات المربوطة على مسافة قريبة من الشط.

والكيس الورقي الذي يضع فيه صيده.

يظل حتى ساعة متأخرة من الليل، يستقبل الهواء المنعش بنكهة الطين والعشب، تروح عيناه تتابعان المارة، وتحدقان عندما تميس البنات بقدودهن «فينتر» الصنارة بجذبة قوية تجفل لها البنات.. ويرحن في موجة

من الضحك. ذات مساء اقتربت منه فتاة أدهشـتها وقفتـه الدائمـة، وصنارته المغموسة في الماء.. سبقها صدرها وهي تسـتند علـى السـور الحديدي.. تقلص النهدان وبرزا.. قدم لها الغابة، وبدأت يده تـدربها.. كانت أصابعه تتلامس مع كفها وجلدها..

خرجت منه تنهيدة عميقة.

– لم تكف عن المجيء.. كانت تسكن في البحر الأعظم. في ليلة ساد القمر سماءه فتجلى.. جاءت.. لم يعول أحيانا علـى غيابهـا في الأيـام الأخيرة.. لكنه يسعد حين تأتي.. ويؤلمه أن يبقى المقعد الصغير خالياً مـن جسدها ووجهها المريح.. كان قد تعود عليها.. فلما جـاءت عـادت الروح إليه.

هذه الليلة لم تجلس.. ظلت واقفة، عيناها تتراوحان بين الوجه والماء، تأخذها أضواء السفن المنسكبة على سطح النيل ثم يتعلق وجهها به.

لاحظ سكونا يشمل الوجه ويقبض على الملامح.. تضـاحك وهـو يخرج سمكة صغيرة من كيسه الورقي..

أدارت رأسها وطفرت دمعتان حرصت على إخفائهما.

قالت:–

جاءني عريس.

ضحك ثم لزم الصمت.

ثم يكن الأمر يشغله، فهو لم يفكر في الارتباط بأحد.. لكنه شعر معها براحة حقيقية. تطول الليلة التي لا تجيء فيها حتى ليخشي ألا يطلع لها نهار.

حين استعاد كلامها أحس برجفة.. وقف مبهوتا جامدا كأنه تمثال، وغاصت عيناه في الماء، والسمكة تلتهم الطعم وتغوص به، وتفلت.

وصديقته تعدل ثوبها، وتسوي شعرها.

ابتسم لها ونطق:– أخيراً.. غمزت السنارة.

مد يده، فمدت يدها، ودمعت عيناه.

– حين أدارت ظهرها لي التوى قلبي وكففت عن الصيد. أخذته هزة من قام من غفوة مباغتة.. وقال:

– البحر يثير الوجع.

***

أخذك الهوى إليها، فقفزت قفزتك ورسوت.. على الأعتاب وأنت تطوي عمرك في يمينك، والبحر خلفك.. مددت يدك، وكأنها توقعت مجيئك فازينت. أسدلت شعرها، وأسبغت رائحتها وانطوت في يدك..

ومضيت..

لم تكن تعلم – تماما– وجهتك، لكنك رأيته وأنت تسير معها على كورنيش النيل قريبا من الكوبري وتماثيله.. رأيته قابعا بانسيابه الخشبي وغطائه التيلي.. شددت يدها.. ونزلت..

تشتت الماء رذاذا فطال الوجه والعنق وبلل الثياب، ترعشها لسعات الماء المتناثر وترعشك.

شفتاها تنفرجان، وتتقلصان. عيناها تتغلقان وتتواربان، شهقتها تكاد تطيح بك في اللجّة.. والعيون حولك تحسدك، تتخاطفك كأنك الوحيد الذي تلبد في صدره بنت!.

يمخر اللنش مياه النيل.. ولا تعرف الاتجاه.

تصورت أنك ستدور دورة أو اثنتين حول جزيرة المنيل وتعود.

لكن اللنش مضى. ميمماً شطر القناطر، مصحوباً بالزغاريد، والموسيقى العالية، وأغاني أفلام الحب.

تخطف البنت قلبك وهي تحيطك بذراعها ويداخلك صدرها.. تفرد الساق، والذراع.. تبسط أصابعها كي تطول الماء.. وتعبث به.. أو تحفن منه على وجهها.

كاد الموج يخطفها فنهرها.. وأوجعت قلبك.

وأنت تواجه غابة الله الجميلة في القناطر.. شد بصرك أن الحـــدائق تطوي أشجارها، وترسل أوراقها وطعم أعشابها على شباب تطل الفرحة من عينيه.

شدتك الجلسات الثنائية، بانحاءاتها.

لكنك إن جلست فستصبح هدفا للعيون المتلصصة.. وسرت متعجلا كأنك تعدو.. وهي بجوارك. تطأ.. وجه الكلأ كأنما تطأ قطعة من القطيفة الموشاة.

جذبك المقهى الجميل فجلست..

المقهى مظلل بأشجار باسقة، ملونة أوراقها، تحف به المياه حتى تكاد تخرج لتلامس الرواد.

خطفتك عيناها المصوبتان إلى الجانب الآخر من المقهى.. كان عـــدد قليل يمسكون بأدوات الصيد، ويقفون منتظرين.

لاح الشوق بادياً..

أحببت أن تذكيه، على لمسات الأصابع وانسياب الماء.

دبّر عامل المقهى صنارة وطعماً.

جاورتك ملتصقة، وشعرها الذي ظل ينسكب على وجهها لمتـــه في زمة واحدة، وراحت تتكئ على كتفك وتنتظر.

أخذك الضحك، وأخذها فهمست في أذنها:

– سنفوز بصيد سمين.

تغريك بسمتها، ورنو نظرتها المتسائلة فتقول جاداً:

– سترين الآن سرب البلطي.

تدير رأسها وتستند، تصدقك وتنتظر فتنظر بانبهار:

– ضمنت غداء مجانياً.

تحرك الصنارة، وتخرج الشص، وتتأكد من الغمازة، وتطمئن على الطّعم.. ثم تغير مكان الصيد.. وأنت خجل من السمك الحرون، الذي بدا يعاديك.

صاحت زاعقة كأنما تعترض:

– نصف ساعة ولم أر بلطية واحدة.

ولأنك سريعاً ما تتوجس، ظللت تردد أن السمك رزق، وأنه علامة على تحقيق الأمل، والسمكة في اليد زوجة صالحة والميّت من السمك ينذر بعاقبة وخيمة.. أحسست أنك محاصر بنظرتها الماكرة التي تقول: أنها لا تصدقك.

فأسرعت تقول:

– وصلتني رسالة من تحت الماء.

هَلل وجهها بشراً.. ورفعت يديها عالياً.

نترت ساقيها في حركة مباغتة حتى كادت تسقط... خطفتها من وسطها، وضغطت عليها فاستكانت لك:

– خبرني.

ظلت تنظر إليك بشوق وأنت تتمهل في اختيار الكلمة.. عينها تتسع حتى تحتويك.. وتأخذ معك الماء، والسمك، والشجر.

– تقول الرسالة: إنك استغنيت.

فابتعدنا..

ضاقت نظرتها فلم تبصر سواك.

تعلقت الدهشة بالهدب الطويل، وانفرد وجهها كله..

ولذت بالصمت..

اغتاظت، فمدت إصبعها وغرزته في صدرك..

فآلمتك. ما الذي ورد على ذهنها فحمل بنانها هذه الحدة الحامية كأنما هو شوكة مدببة.

– خبرني.

– تقول الرسالة:

معك البلطية.. سبقتنا إليك.

أغراها طعمك.. وفتحت لها قلبك..

فدخلته وتمكنت!

أمالت الأشجار أغصانها، وأرسلت أوراقها تدور حولهـــا، وبثـــت، الزهور عطرها وقطفته باقة لا مثيل لها.

وهي تزدهي تيها، وتشمخ.

والموج تحت قدميها يخف ويصطفق.. وراح السمك الصغير يرمقهـــا بعيون مفتوحة وملتمعة.

ثم حرك زعانفه، ومرق راقصاً، وانسل نحو اللجة العميقة.

***

انغرز في كتفه إصبع حاد فجفل.. واندهش..

قال مختار متعجباً:

– أفق..

اجتاحه هزة من قام من غفوة مباغتة..

كان مختار قد لمحه وهو يطوف باللسان الممتد في صدر البحر بعيداً.. يحدق في الأجساد المرتخية ويرتجل الأحاديث معهم، والأصابع تدس قطع السمك بشرائح الطماطم والفلفل الحار في أنصاف الأرغفة.

هز كتفه ووجه همسة عالية إلى صابر:

– انظر.

شمله بنظرته، ورجح أن يكون الطالب الذي رآه ينسحب من حجرة المدرسين بالمعهد يوم الاحتفال باليوم الوطني.

مال بجسده كله كأنه يتساقط. سلم عليهما.. ونازعته نفسه أن يجلس فادعى مختار أنهم يزهمون عليه هناك.. نزغ غترته وسواها ثم وضعها على كتفه.. بدا شعر غزيرا وطويلا حتى غطى أذنيه.

أمسك صابر بحصاة وظل يفركها، ثم رمى بها بعيداً..

أشعل مختار السيجارة الخامسة، ونفث الدخان في صوت مسموع وقال مندهشاً.. ومعقباً.

– لعله يبحث عن خلّ جديد.

لم يدرك المعنى.. فنظر إليه صابر متسائلاً:

– من تقصد؟

رفع يده وأشار إليه.

كان كاظم العراقي مدرس العلوم في المتوسطة.. قد ارتبط بالطالب بعلاقة مكينة، حتى شاع الأمر، وخاض البعض في السيرة الخاصة.. ثم اعتاد الناس الحكايات المتشابهة فقل الاهتمام، واستحالت العلاقة إلى عادة تعوّدوها.. فلم يسألوا.. أو يتساءلوا .. وجنحوا إلى الصمت.

في دورة تفتيشية أومأ إلى الحارثي مدير المدرسة أن العلاقة سلوك خطر، وقدوة سيئة، لا تقاوم بالصمت، أو التجاهل.. وأن ردود الفعل المسلكي يوحي بالغواية، ولا يدعو إلى المغايرة.

– قلت له في حدة إنه سلوك منهي عنه ديناً وعرفاً.. لكن الحارثي غضب، أربد وجهه في انفعال حرص على كتمه، وقال:

– ليس لي عيون بعددهم.

وقبض على كم جلبابه يعتصره:

– للصحراء قاموسها المسلكي.

رفع يده ملوحا باتجاه مصر:

أنت لم تدرس الصحراء «زين».. ولا تعرف ناسها.

مسك في توتر.. فنجان القهوة فاهتز.. وانسكب.

رشف رشفة ممطوطة وعيناه ترقدان على مختار:

– كيف حصلت على الشهادة إذن!

حين جلس مختار مغيظاً وصامتاً، عادت إليه طبيعته فابتسم وقال:

- الإخلاء.. درجات.

ثم صاحبه في جولته..

قال الحارثي وهما يجلسان في حجرة الإدارة:

- أرأيت كيف تبدو حالتهم؟.. هل يستطيعون الزواج في ظل وضعهم هذا؟

ونظر إليه وكأنه ينهي حديثه:

- لهب الصحراء، والبلوغ المبكر، والعوز الشديد، وغلاء المهور.. أسباب نطق مختار في قوة وهو يعقب على الحارثي.

- ولو...

ومع أن الموقف مضى عليه عامان، إلا أنه بدا وكأنه يعيش الموقف نفسه، الوجه المنقبض، والأسنان الطاحنة.

أراد صابر أن يخفف عنه فكرر لازمته التي يرددها كلما اعترض على أمر... وصاح «ولو»..

- في آخر العام تزوج الطالب.

- ولو!

ضحكا حتى ارتجا.

الغريب – كما حكي– أن صحبتهما ازدادت نمواً وتواصلا..

لكن وجود الزوجة مثل عقبة كأداء، فلا التقاليد تسمح، ولا الدين يتجاوز عن مبدئه، ولا أهل الزوجة يترخصـــون في الأمـــر.. فعـــادت الشكوك تطل من جديد.. حتى طالت الولد وزوجته..

وقبل أن يكتمل العام الدراسي فوجئـــت إدارة المدرســـة بتغيـــب المدرس.

كف عن الذهاب واحتار في أمره المحيطون به.. انشغل المتعاقـــدون زمنا، حتى نسي الجميع الأمر، وحل صمت مريب، وأضـــحت الســـيرة جالبة للهم، وواشية بغضب الناس.

ألغت الإدارة عقده آخر العام.

لكن الولد ابن عم الزوجة راح يشيع أنه فر إلى الباديـــة البعيـــدة، حيث الجبال الشاهقة والكهوف الوعرة وحصباء الرمال الحادة.

كان الناس يسمعون، يحدقون، ويصمتون.

ومختار يلفظ من فمه حصاة ظل يلوكها، ويعلـــو صـــوته في نـــبرة مسرحية.

– يا له من أمر مخيف!!

***

شعر بالوحدة تجري في جسده وتمص دمه كدودة العلق، وتتركه هامدا لا حركة فيه، ما الذي جعله يتخلف عن حفل الشيخ فلاّته في مضارب القبيلة؟ كان قد مر بالمعهد داعيا الجماعة. إلى عرس نجله الذي تخرج قبل مجيئه بعام.

سحنة داكنة، لحية بيضاء مدببة وعين منطفئة.

يشي.. الوجه الداكن بطيبة حقيقية.. يجذب الرائي إليه ببسمة دافئة، ووداعة تنفرد على ملامحه.

قال الغامدي وهو يقدمه. إليه:

– كأنه من جماعتكم في الجنوب البعيد.

مد كفه اليمني وابتسم.

– قل.. إفريقي قديم.

تتعدد الجنسيات في الجنوب وتتداخل من زمن بعيد.

لا تخطئ العين سحنة الأفارقة واليمنيين والترك، والهنود والباكستان... ينفتح البحر والخليج على أماكن مختلفة، وبشر مختلفين جاءوا هرباً أو غزوا أو تجارة، تخلفوا، أو استقروا ومضت بهم الحياة.

قبل أن يمضي ذكره بأنه الوليمة في مضارب البادية لها طعم جديد.. ومميز، لكنه بادر فاعتذر، فصمت قليلا ثم حدق فيه بقوة.

– عينّ خير.. ستأتي مع جماعتك.

أدركه حنين إلى الانفراد بنفسه، فلم يصاحب مختار، و«صـــلاح». وتخلف.. وراح يطمئن نفسه.. لن يفوته شيء كبير فكـــم مـــن ولائـــم شهدها.. وسعد بها..

الليل طويل وضاغط، تآزرت عليه الرطوبة الثقيلة والحزن الشفيف الذي يغزوه كلما انفرد بنفسه، لم تسعفه السماء بنجومها اللامعة في أفق الشمال، ولم تخفف عنه لسعة الغياب نغمات الموسيقى التي تنساب في رقة مذابة تدلف به إلى غيمة الحنين... فيزداد حنواً.

هيأ نفسه لاستقبال الوجه..

كان لايزال يتأبى عليه في الأيام الماضية.. يشغله التهيؤ له فينسحب إلى الداخل، يتنفس بعمق، يسترخي قلبه، ويستجديه، يضن الوجه عليـــه بالتجلي ويخاصمه.. لم يعد يناوشه في جلسة الوداعة، والنفس مشـــغولة بعشق الوصال، وبالرغبة في التسامي والارتقاء..

ما الذي شغله عنك فأوجعك؟

ما أقسى البعد على النفس؟

وما أتعس البريد الذي يأتيك على جمل يخوض أرضاً وحلة!

ظل يستجدي اللقاء.. وينتظر الجلاء!

استعد لاستقبال الأجزاء.. العين، الخد، الشـــفة، الجبهـــة، الشـــعر المنسدل، الجيد المنحوت.. ليصنع منها وجهه الغائب.. شد ضياء النجم فارتعش النغم.

وارتجف الضوء السماوي.. ركز ذهنه وراوغـــه.. هادئـــه.. كـــي يتقنصه، يقبض عليه، ويلج به إلى القلب فيسجنه.

أخرجه من إغفاءة التوقع صرير الباب.

انفتح الباب ودخلت منه امرأة احكمت عباءتها وأسبغتها، وأرسلت حجابها على الوجه كله.

أخذته المفاجأة فهب واقفاً، ومغمروزا كأنه عمود خشبي مركوزا في الأرض، لا شيء يبين منها، حتى كفاها استترا بجورب سميك.

عبرت الحوش حتى واجهته:

– أعلم أنك بمفردك... وأن صاحبيك ذهبا للوليمة.

اقتعدت كرسياً وأضافت:

– رأيت الحوش منطفئا وضوء السماء لا يكشف أحداً.

فقلت: هو الوقت المناسب.

تحرك ليشعل النور فمنعته.

– هذا أفضل.

اقشعر بدنه، وشملته رعدة تنفضه، وخشي أن تكون هنـــاك مكيـــدة مدبرة، فكتم خوفه وراح يتلصص صوتا أو جرما.. وهو يقتـــرب مـــن الباب.

عادت تحدثه عن الوليمة، وزوجها – حارس المعهد– الذي لا يترك دعوة، أو تنقطع له قدم عن ولائم الأعراس.

تماسك حتى يلتقط أنفاسه.

– أنت حرمته.

– نعم.

تحركت في جلستها، وطرحت حجابها:

نور السماء شحيح.. لكنه استطاع أن يتعرف على ملامحها.. العـــين ملساء، تنظر إليه بإمعان. بؤبؤها ساكن ونافذ الرؤية.

الحاجب رفيع كأنه شعرة فسمح للجبهة أن تجور على الوجه حـــتى أكلت العين فبدت كخرزة مثقوبة، الشفتان غليظتان وحـــين تنطبقـــان ترهصان بإغراء قديم.

أحس أنه يواجه امرأة داهية، فالتزم الحذر وظل نائياً.

ونابت حركته عن قلق وتوتر يزداد كلما رآها مطمئنة في جلستها.

قالت وهي تدفس يدها في حجرها:

- لا تخف.

ثم أردفت وهي تنظر إليه.. مبتسمة:

- لا تجعل خيالك يروح بعيداً.

حدثته عما تسمعه من أصوات كلما خرجت إلى الحوش أو دخلت المطبخ، أو نشرت الأغراض.. تحس أن عينا تتابعها، وتترصدها حتى أنها خشيت أن تخرج إلى الحوش بملابس خفيفة، يشغلها اهتزازة حطب السقف وكأن أحداً يقتعد الجدار.. ويزيح الأعواد وينظر.

فاجأته قائلة:- أيكون أنت؟

كاد يضحك ساخراً، لكنه أسرع - خوفاً- ونفى ما سمعه، ونصحها أن تبعد عنها تصورات كتلك آتي التي لا تحدث إلا في المنام..

وجمت برهة وهي تتصيده وجلا ومرعوباً:

- ليس هذا مقصدي.

أخبرته بما سمعته من ولد أخيها عن إخلاصه في العمل، وعن خلقه الذي يمدحه الجميع، وبعده عن السوء.. واكتفائه بما لديه، وصونه للسر، ودخائل الأصحاب.

أوشك أن يضحك، لكن نظرتها أخافته فكتم ضحكته وأردف:

– ولد أخيك يبالغ كثيراً.

قالت وهي تزيح المنديل قليلاً:

– لهذا اخترتك لستاعد زوجة الحارس في علومها.

عقب مبهوتاً:

– الزوجة الجديدة.

طوحت بيدها:

– هي نفسها... ضرتي..

تسأل في دهشة:

– طالبة بالمدرسة؟

– بالمتوسطة.. السنة الثانية.

لم يقو على مواجهة العينين المثقوبتين فأدار رأسه:

– ولماذا لجأت إلى..؟

نهضت.. فبدت طويلة نحيلة.. وانحسرت العباءة حتى الخصر.

خطت خطوات متمهلة– كأنها تقصدها– باتجاه المطبخ ثم عادت.

ابتسمت في إدانة:

– كأن جنيا يتلصص علينا.

انكمس مرتعباً، حين راحت تكرر حديثها عن العين التي تتابعها من وراء جدران المطبخ، وخاف أن تقصده.. فلزم الصمت.. رآها تخرج علبة سجائر، وتتمهل في إخراج واحدة، فقدم لها الكبريت، أشعلت السيجارة في نهم واضح.

– أعلم أن جوارنا «رجاجيل» يدرسون للبذورة.. لكنهم متزوجون.. تركوا حلالهم في بلدهم..

وضحكت في هسيس صوتي مثير:

– هم خبراء ولا يضيعون وقتا.. أما أنت فطيب.. وخام.. وأثق فيك.

***

يجتاحك شعور ضعيف وواهن يتر منك.. أنك ابتعدت عن وجهك الجميل، وكد تطرحه خلفك، وتمتهن طهارته وأنت تستمع إلى المرأة التي لا تخجل وهي تقول لك: أريدك لها، وتبين عن شفتين حادتين ولسان يخرج ويعدو مع حركة الكف.. وهي تريدك أنت.. أي خلط عقلي.. تحدثك به المرأة الهلوك وترميك في هوة سحيقة لا قرار لها.. تسلط عليك أفاعي الحس، وثعابين الهوي فتحاصرك.

تضعك في ركن ضيق وتضغط عليك..

إما أن تقبل، أو تدبر لك مكيدة.. ما هذا الغياب الذي أنت فيه!

يأخذك الخوف، والعجب معاً.

عاجز أنت عن مواجهة حقيقية.

حين يأتي الحديث عن النساء في هذه البلاد النائبة فلا مجال لمـــبررات أخرى.. الموت أو الطرد.. ولا طريق آخر إلا الوأد..

وكفاك ما أنت فيه..

هذا البيت ينطوي على أسرار وحكايات.. لن تنسى ما حييت نظرة الرجل وهو يحادثك ع عبد العزيز، وامرأته.. حتى إنك تستشـــعر أنـــه فاعلها. حدسك يقول ذلك.. يقترب بك من التصديق.. ترى هل تقـــوم امرأته الهلة معك بدور مشابه؟

لم تستحي وهي تقول لك:

– أقودها إليك.

المرأة الطاعنة.. ماذا تريد منك بالضبط.. تبتزك!.. أو هي مســـلطة عليك لأمر لا تفهمه أنت..

ما هذا الغياب الذي أنت فيه!

وكأنما خرج من جب غويط فقال في صوت حاد:

– كيف أدرّس لامرأة!

تعجبت من صرخته فأشارت أن يهدأ:

– كما تدرس للولد.. أم أنها حية تنهشك!

سايرها حتى تخرج وينتهي من الأمر كله:

– كيف تنكشف على رجل غريب ولو في خلوة.. للعلم لن تـــرى سوى عينين.

ثم ضحكت وهي تشعل سيجارتها الثالثة:

– ولسانا وشفتين.

وقلصت فمها وهي تخرج خليطا كثيفا من الدخان:

– اطمئن.. سأكون موجودة.. كالديدبان.

– الدروس الخاصة ممنوعة.

لا أستطيع..

تقلص الوجه.. أدخلت قدمها في خفها الصغير وحكته بالأرض.

قبضت بكفها على طرف العباءة وردت في حسم:

– من الأفضل أن تقبل.

أسندت ظهرها على الجدار الفاصل بين البيتين وسهمت عيناها.

– غيرك يتمنى.. لكنني قصدتك أنت.

ظل يتساءل عم أغراها به. زوجها.. حارس المعهد الذي تبين عينه على نظرة عداء ساكنة تطل عليه كلما رآه!

كيف يبدو الأمر بينهما..

– أنت لن تستطيع أن ترفض.

– تهددينني!

– من الأفضل أن تقبل.

يدرك أن المرأة تضغط عليه، بل تهدده، تستطيع أن تدعي ما لا يحدث.

لن يقف أحد موقف المحقق، أو يتريث من مكائد النساء، وحيلهن.

التزم الصمت..

كان الليل يرسي دكنته الشهداء.. والهوام تبعث هسيسها المختلط، وقلبه المرتجف يؤلمه.. وخوفه من المكائد يربكه.

رفع رأسه إليها..

حركت جسدها في التواءة مباغتة فلاحت الساق مبرومة ولامعة.

سقط طرف العباءة عن الكتف فاتسعت مساحة الصــدر وبــدت الرقبة مشدودة، وثنيات الجلد لم تختف تماماً.. أمالت رأسها إلى الأمــام وطرفت بهدبها الخفيف.

- لا تخف.. سنقول إنك تعلم البذران الصغار.

وضحكت في صوت ممطوط.. ومدت يدها إليه ثم كفتها:

- كلام نقوله.. لو سأل أحد.

ونترت نفسها.. وتهيأت .. للخروج:

- عليك أن تكتم الأمر حتى على زميليك.

استوقفها.. بدا عليه الاستسلام:

- لابد أن يطلب الزوج ذلك مني حتى أطمئن.

أحبكت عباءتها.. وعيناها تحوطانه.

ثم مضت متسللة.

***

يوماً بعد يوم وهي تراها معجبة بنفسها.. تقبل على الحياة، يضــوي جسدها بالأنوثة، ويبثها.. تتشمم رائحتها كما تتشمم الزهور وهي التي ذبلت وجف عودها وانطوي على رغبة موهومة.. من أين جاءت بقدمها

المنحوت في جماله الصابح! ومن لها بتلك الانحناءات المرسومة بأزميل مبدع، والأطراف المنسابة في ليونة الحرير.

من أين جاءت بنمنمات الوجه.. وتكويرة الصدر، وانخفاض البطن، وامتلاء المؤخرة.. من أبيها الذي ما ارتدى جلبابا إلا في العيدين؟! من أمها العمشاء مشققة الجلد، هضيمة الخصر!!.

أراحت رأسها على قبضة اليد، وعيناها تلاحقانها.. وتنهيدة تخرج ممطوطة وساخنة أخذت منها بقايا شعور مستور.

هذا الشيخ «الهاطل» كيف له أن يروي جسد المهرة الفائر. ويكبح جماحه؟.. وهو الذي كان في أخريات أيامه كجسد ثعبان ميت.

تتطوف في منامتها الشفيفة فتأخذ روحها.. وتظل تحدق فيها وتبتهل أن يحفظ الله ما حباها به.

حين خطت في توقيع متثائب أسرعت إليها، جابهتها رائحة الريحان التي تحبها.. قطفت ورقة ريانة من فرع مدسوس في شعرها، وأخذتها من أصابع يدها نحو غرفتها التي شهدت فتوحات الجسد.. لكنها الآن غرفة مصمتة من قبل أن تأتي البنت.

تتسرب رائحة الحناء في جنبات الغرفة، لا تستغني عنها منذ بدأ الشيب يزحف.. باح المكان بالمستكة، تدخرها لقراءة الطالع واتقاء الكيد من الإنس والجن، تضع القطعة منها فوق خشب يحترق وتظل تضاهي بين هيئة المستكة في تشكلها والوجوه التي تعرفها.

أعادت ترتيب خلطة الدهون التي تسعفها في لياليها المعدودة، أو في مناسبات العرائس.

تمد يدها، وعيناها على البنت، وتفتح صندوقاً مزينا بسيور من القصدير، عبثت يدها بقطع الصابون، وقوارير العطر، ومكاحل العين، وملقاط الحواجب.

أخرجت قارورة من العطر، نفذت رائحتها قبل أن تصل إلى يدها.. قدمتها وابتسمت وتقدمت..

أزاحت منديلها فانهل الشعر بجدائله كموجة محتجزة، وانفلت، غطى الشعر ظهر البنت.. كاملاً:

راحت أصابع العجوز تتحسسه، وتراجله في دفعات حانية، وعيناها تغقان في وجهها.

لم يفتها بريق العين، وهو يبوح برغبة – هي تعلمها– لم تشبع، وبشبق لم يرتوِ.

وتعجبت.. كيف لا تحترق من سعير الداخل.. فتتلوى؟!

وكيف تبدو ساكنة كأنما هي جسد لروح أخرى؟

ظلت البنت على حالها، يهب منها الصهد وتستقبله الأخرى..

فقط تدور بعينها في انكسارة خجلي.

تولهت فأخذتها بين يديها، ظلت أصابعها الناشفة تستدفئ بالصـــهد المنبعث من الجسد وعقلها يأخذها بعيداً.. ويغزوها تساؤل ولم يخطر على البال.. أتشتهيها!!

أبدت إعجابها بالثوب، وكشفت شفتاها عن أسنان بارقة، ومفضضة مسكت الثوب الشفاف عند الأجناب، ولمته بين أصابعها فتحدد الجســـد وفاح بصهده.

ارتعشت المرأة العجوز ومدت يدها، مســـدت شـــعرها وتنهـــدت «يحميك ربك».. واحتضنتها.

ظلت البنت في حضنها.. ساكنة.. إلى أن أرسلتها..

أوجع قلبها عين البنت وهي ترخي هـــدبها في انطباقـــة راجفـــة.. وراوغها سؤال ظل يفلت منها ويطل.

أتفعل مثلما تفعل الأخريات اللاتي يخترن الصغيرات لأزواجهـــن؟ ثم يتشاغلن بهن؟

أسعدها وأثارها ما لاحظته على البنت من تبرم وضيق وأصابها القلق الذي حرمها لذة المشاهدة وهي تراها ذاهلة، حتى تكـــاد لا تعـــي مـــا حولها.. يأخذها التوتر الذي يجعلها تطوف بالمكان ولا تقر فيه.

لم تعد البنت تهتم بنفسها، أو تتزين للشيخ الهاطل الذي أقبل عليها ولم يخف سعادته أمامها، فأوغر صدرها وحكمت عليه أن يطل فأراً لابداً ومذعوراً.. هذا الذي لا يجيد إلا الكيد والمخاتلة!

تركت شعرها مرسلاً، ولم تعد تنتبه لفتحة الثوب فبدا الصدر عاريا عند كل انحناءة..

أيكون الابتعاد عن زوجها وراء حالتها!!

في الأيام الأخيرة ظلت تهرب منه وتأتي إليها.. في غرفتها.. عيناها منطفئتان، رغبتها موءودة.

كانت قد نصحت الزوج أن يصبر، فهي في عمر حفيداته الصغيرات، وما لم تحتج عائلتها للمعاونة ما تزوجت.

كانت تضحك له وهو يستاك متبرما وتقول:

– أردت أن تحيي الموات!!

لوّح بيده وأدار وجهه غاضباً:

– ليس بعدك امرأة.

حين لمح بسمتها أدرك أنها رضيت بما سمعت، فرنا إليها وبدا كالمستجير.

– لا تريدين لي كبوة أخرى.. كلّميها:

لا تحب له أن يسقط. المرأة الأخرى لم تدم معه كثيراً، كانت مطلقة، وهاربة من وحدتها، وتواقة إلى إطفاء غلمة دائمة.

لكن البنت صغيرة.. وطازجة، وأدخلتها – دون أن يطرأ ذلك على بالها– دهاليز من المتعة، وارتقت بها درجة فسادت.

لا تحب له أن يتهالك، أو يتمادى فيسقط..

لابد له أن يظل قائماً..

أما هي فعليها ألا تهمل في هندامها وجمالها فتتعذب بها.. لابد أن يتواصلا.. حتى تتواصل أيضاً!!

عليها أن تخطو خطوة جادة وتتقدم..

عليها أن تخلص البنت من سطوة الحس الذي أذهلها عما حولها.. أتشتهيها وهي لا تدري!

هل تفك طلسماً ظل منغلقاً سنين طويلة!

أتطويها في يمينها؟ وتضعها في قبضتها! حتى تستريح، وتظل – كما هي– سيدة المقام.. وآمرته.. تشير فتهرع إليها ملبّية..

هل تستعيد آمرتها لدى الشيخ، فتذله، وتجرح رجولته وهو الذي لم يراع شعورها – وهو يقبل– على البنت في سعادة لم ترها منه في أيامها الأولى معه؟!

فقط عليها أن تخفف من غلوائها، وأن توازن بين الأمور.. وأن تهدئ من المشاعر وتقرب المختلف.

لا تحب أن تفارقها. لم تعد السيطرة أمرا يشغلها، تخشى بعد أن تعودت.. أن تحرم من مائدتها العامرة.

كيف لهذه المهرة الجموح أن ترتوي، ويسلسل قيادها؟ وراحت تبحث في خيالها. وتختار..

لم تدر لم طاف وجه هذا المصري المتعاقد على الخاطر، هو في حالة.. لا يذكر بين الرجال الذين تراهم بعينيها المثقوبتين.

لعله الرجل المناسب.

لن يقوى على الرفض.. هذا الذي لا يرفع عينيه عن الأرض، ولن يستغل ما آل إليه الحال.. من ضعف، ورغبة وهوس في الامتلاك.

وتذكرت الجسد النحيل بتدويراته، واللذة الصاعدة لتوها حين بدلت الثوب.. فاجأتها أشواق معطلة.. بدأت تتركر كرشح الماء.. كانت قد صادتها وهي تقف أمام مرآة طولية وكفها تتر حرشح في رهافة ارتعش لها بدنها..

لا تدري ما حدث.. كانت المرة الأولى.. أسرعت إليها..

وقبل أن تنتبه وترتدي ثيابها.. كانت قد أخذتها واحتضنتها.. تملصت البنت قليلاً.. ثم استكانت..

أحست براحة حقيقية.. وبخدر لذيذ أرخى عضلاتها..

وراح عقلها مع سعفات النخلة المتمايلة على جذع ناشف مركـــوز في الرمل ينتزع ماءه الشحيح من الأغوار في جهد شديد.

***

تمددت ملامح النهار حتى طالت الفضاء، وتسربت اللزوجة فـــترت مسام الجلد بعرق غزير، ظل يكاد حركة التنفس، وتوتر الصـــدر حـــتى خشي أن تأتي اللحظة العاصرة بمفاجأة لا تسر.

كان الصباح ثقيلا فشعر بانقباض، وهاجسه شعور بأن اليوم ثقيـــل الوطء، وأن رحلته إلى القرية البعيدة فوق التلال العالية جاء هروبا مـــن رعبه الذي نفذ إليه وأقض مأمنه.. هالته تلك الوجـــوه الـــتي تلونـــت فانبهمت كأنما ضربتها عاصة فشدت عصبها وفردته، ولونتها بلون الغبار في عتمته المصفرة.

كان الطريق إلى قرية «الأحد» يقطع الوهاد الرميلة، ويتلوى خلف التلال، ثم يلتف صاعدا وهابطا، مارا بصخور وأشجار، ونعاج متباعـــدة ومساحات ضئيلة من الخضرة.

تبدت قباب صخرية كأنها جذاذات من جبال، ووراءه نشع المياه التي يمرح حولها الصغار، والسخلات الصغيرة.. والماء الذي ينبت من المســـام الرملية كندي شحيح يتكور فوق الأوراق.

لم يكن يتصور أن يعثر على هذا المكان الذي يذكره بقريته القديمة.

المساحة الخضراء والسيقان المركوزة في الوسط وفوق الحواف.. وحبات التين الصغيرة الملفوفة بعرق اخضر، وعناقيد العنب الأخضر الصغير المغير بصفرة باهتة.

كانت تمثل له عينا للحياة في وهدة مجدبة.. وميتة.

تناثرت البيوت واستقلت.. تلاصقت بالصخور ابتعدت، بدت فوق مساحة الصخور المتناثرة كعمامات بيضاء. المداخل بيضاء، والجدران بيضاء.. انبعث السرور في قلبه فترطب.

هبت نسمة باردة فانفتحت الصدور وتلقفتها وجوه مزبدة فتراخت.

تسلل الهوينا حتى ابتعد.. وصلته أحاديث مختار وصلاح وصيحات سعيد.. ونداء الغامدي، وكيل المعهد لرقصة العرضة.

راح يعدو بين الصخور المداخل الواطئة تبدو كأنها محفورة في الجبل.. يجبرك المدخل على الانحناء.. ترصد العين المشهد من بعيد فيبدو كلوحة مزينة ببقع من الأبيض الباهت، وفي الخلفية فتافيت صخرية.. وحبات من التين الشوكي مبثوثة في الأركان.. ما أحلي القطاف لمن قدر عليه!!

صادها الضوء فجأة..

انفتح المدخل ولاح الجسد منحنيا إلى الأمام.. الوجه حاسر، والصدر عار إلا قليلاً.. وحين استقامت تجلت كحورية، وحجلت بين

الأشجار، وطاولت انطلاقات النخيل.. أزاحت الصخور الملساء خلفها وتصدرت المشهد. قمرية الوجه وسط أعشاب صحراوية وكلأ جاف أطرافه كالإبر.

وظل المدخل الذي خرجت منه يحتفظ بنور وضيء..

حمل دهشته، واحتار كيف يتبدى البدر المكتمل وسط هذا الجدب الموحش؟

كانت الشقوق قد ضربت وجه الأرض ومالت الغصون في انحناءة حانية، وراحت العصافير تبعث زقزقاتها وهي تتدلى أو تقفز أو تلتقط حبا، أو تطير حتى البئر المسيجة بالشجر والمحاطة بالأرض المبتلة وناشعة، ثم تفرد الجناح وتعود.

رآها تنحني وتمسك فأساً صغيرة ذات يد طويلة، وتبدأ في تقليب التربة.. يتدلى من عنقها عقد زجاجي لامع، كلما طال انحناؤها اصطادت الشمس حباته فضوت.

جذبه إليها همة بادية، قاوم رغبته العارمة في الاقتراب.. فنزل..

أدهشه ألا يرى أحداً. لا شيء سوى فتافيت الصخور وشقوق الأرض، وهذا الوجه الوضيء.. وتلك السماء النازلة على المكان كأنها تباركه.

اعتدلت، فلمحته، فابتسمت..

كانت تعلم أنه يراها.. وأنه يطاول من عنقه ويمد بصره ليلتقطها في انحناءة الجسد وتدويراته.

ظلت حاسرة الوجه، فقط سترت صدرها وأحكمت غطاء الرأس، ومهما تخفت فالجمال كالرائحة، يجذبك إليه غيمة العطر السارية.

وضحك حين هبت ريح حملت معها رائحة النعناع البري.. وقف عند نتوء صخر فتبدت واضحة. أخذه العجب وتساءل في توجس – أين الناس؟ لم ير إلا نعجات هنا وهناك، أو إبلا تلتقط الأعشاب، أو ترقد مجترة.

لم يقوَ على تنحية الخوف، فالحفيف الذي يصله مع الصمت وخلاء المكان بعث فيه هذا الإحساس حتى كاد يلتبسه في قوة.

وطالت وقفته..

راودته النفس أن يرجع لكنه وجد نفسه يتقدم وراح يردد في غياب: من يبدأ لا يهتم بالنهاية.. ابدأ أيها الجرذ...!

ولما ظل صامتا وجامدا، تلفتت إليه وصاحت:

– معلم. لم أنت هنا؟

تلجلج قليلاً ثم قال:

– شدني الجمال.

ابتسمت: إيش الجمال؟

ما الذي عليه أن يقوله حتى لا تؤول كلامه.. آثر الصمت.

– من وين!

– القنفذة.

زمت شفتيها وطوحت بيدها متأففة.

ثم كتمت بسمة كانت تتجلى.. وباغتته:

– رأيتك ترفع رأسك وترسل عيونك.

تماسك واحتفظ لنفسه بمساحة من التروي:

– فوجئت بالبهاء فانبهرت.

بدت أنها تحادث نفسها، وتحرك وجهها، وعيناها عليه.

– إن كنت تقصدني فبنات الجبال والمزارع سلالة.. الأتراك.. أزين مني.

انفتح صدره لنسائم رطبة هبت فأنعشته.

– ديرنا هادئ.. آخر حدود المزارع.. الجمال هناك.. وتطلعت إليه.. كأنما تنتظر أن يجيب.

واتته الجرأة فقال في سرعة مدغمة.

– إن لم تغضبي.. فأنا أقصدك

واتاها الفرح، فبدت مزهوة..

تشجع واقترب.. مدت يدها واعترضت..

أشارت أن يبقى مكانة، فلن تضمن أن تخرج الأرض عيناً من العيون أو أذناً ترهف السمع.

– ليش ما ذهبت مع إخوانك؟

– يرقصون العرضة.. وأنا أجهلها.

ارتكزت على الفأس، ولملمت ثوبها فتجسم الجسد.

– هم في الرحبة يشهدون عراك السخلان.

فرأت على ملامحه علامات الدهشة وعدم الفهم.

استدارت إليه كلية. وغربل النسيم في الثوب فانفتح حاولت الأصابع أن تلمه فاستعصى، جذبت يد الفأس باستقامة البدن حتى طالت الصدر.

– في الوقت هذا من كل عام.. يتلهى الناس بتلك الملهاة

– عراك السحلان!

– عراك السحلان

ثم علا صوتها وهي تشبه هذا اللهو.. بلهو الناس في كرة القدم.

أراد أن يضحك.. جاءته الضحكة حاكمة فكتمها في جهد.

– وأين النساء؟

– تحجبن وذهبن.

– وأنت هنا.. بمفردك.

– جدي في الداخل.. مريض..

– وزوجك.

– زوجي والأولاد هناك.

وكأنما شعرت براحة حقيقية، وبود صادق فحدثته عن نفسها.. هي الزوجة الثالثة، ولم تنجب، ترعى أبناء ضرائرها.. منهن من ماتت، ومن طلقت، وتزوجت.. يقاربها الأبناء في العمر.

با عليها التردد وهي تسترسل، بذلت مجهودا كي تروض الغضب الذي بدأ يطل على الملامح.

– تتزوج المرة مرة أو أكثر

تتنقل بين الرجال.. عادي..

كادت الدمعة تطفر من عينيها، تقلق قلبه، وتألم أن يكدر الحزن مثل هذا الجمال، وخرجت منه تنهيدة وهو يتدرب حكمة الله ويستدعي رحمته.

– التنقل بين الرجال بصك كأنه خيانة.

بان الهول على وجهه وهو يتابعها.

– خيانة للأبناء.

انفتحت مسامها وغيمة الملح تنعقد في العين.

– في مصر لا يحدث هذا كثيراً.

– الزواج عندكم.. سهل.

– للمطلقة.. أو الأرملة..

الأم تترك جراحا للأبناء حين تتخلى عنهم لتربيهم زوجة أخرى.. أو رجل آخر.

ما الذي حدث جعلها تنتفض ويرتجف بدنها، وترمي بقوة بفأسها بعيداً، ويتقلص وجهها وتكشف عن صدرها حتى ليبدو وعيها غائباً.

وقعت تحت ضغط انفعال قوي. ضعف البدن فتهدم، انكفأ البنيان على نفسه.

ارتعب وراح يدور حول المكان عاجزا، خشى أن يكون أصابها ضرر فهرول مرعوبا مذعورا، حتى وقف أمامها.. رانياً في ابتهال أن ينقذه الله من هذا الموقف، وأن يخفف عليه التجربة، فهو غير قادر عليها، وينـــوء قلبه بثقلها.

لكنها في حركة مباغتة هبت قائمة، نفضت عـــن ثوبهـــا التـــراب والحصى.. والكلأ الجاف، وخطت نحو الفأس والتقطتها.

استدارت إليه وقالت في حسم.

– اذهب إلى إخوانك.

وتلهى بالسحلان

اذهب..

طالت وقفته حتى إذا اطمأن.. ورآها تقبض على الفأس وتعمـــل.. انسحب.. وعبارتها عن التنقل بين الرجال بصك شرعي، تتردد في نفسه، وتتسع مساحتها حتى كانت تغطي على الخلاء كله، أخذ طريقاً ملتويـــاً، قفز فوق صخرات ناتئة، وتسلق نتوءات جبلية مدببة. واستدار فوجـــد نفسه خلف تل من الحصى المجروش، اعتلاه.. تبدت أمامه مساحة عريضة وممتدة بينها وبين التل فجوة بطول المساحة كأنها ممر.. تنطوى لمن يجيـــد القفز.. الأرض الممتدة ليست في استواء كامل لكنها تنبئ عن أرض لهـــا خاصية متميزة.. منخفضة قليلا، وتكاد تتصل أطرافها بـــالأرض الـــتي تركها.

تكاد تكون مسيجة بأحراش صحراوية، ونباتات شـــوكية.. تهتـــز فروع التين على المدى، وعناقيد العنب فوق أشجار الكرم الملتف، وثمـــة فسائل نامية ومشرعة من أشجار النخيل.

كانت الشمس الصحراوية لا تزال تمارس طقسها الناري فتضـــغط بلهيبها، فيتلوى الهواء ساخناً.. حبات من الماعز والغنم تمرح.. وتعـــدو وتلوذ بالظلال... والخضرة.

هيأ نفسه واستعد، ما الذي يمنعه من تنفيذ رغبته التي طاقـــت بـــه وحركت شجونه! هل يظل – دائما– حاكما رغباته، وائدا إياها خوفـــا من مجهول قد لا يأتي أبداً!!

تراجع، ودقق النظر، ثم خطا وقفز.. واقترب.. وزهوة القفزة تكاد تسكره.

رأى طابورا من الرجال يطف في خيط متعرج..

كان الدلو يعلو ممتلئاً. والماء يفيض كأسلاك مـــن الفضـــة المذابـــة والأيدي تمتد في لهفة لتقبض عليه.. وتسكنه في الجرار، والجراكن!!

تنحى واحد منهم وراح يسكب فوقه الماء ويدعك جلده الداكن.

علا صوت ينهره: يا رجال الشافي هو الله.

لم يهتم وواصل استحمامه وهو يرمقه خلسة.

– العلاج بالماء أكذوبة..

يكاد الطابور ينفك.. تنحى البعض بعيداً، وارتحل مـــن ارتحـــل... وبدأت النساء يتقدمن نحو البئر.

كان شيخ عجوز يصدر تعليماته من أمام عشه قريبة.

كل واحدة تملأ جرها بنفسها.

نفرت واحدة وتقدمت.. وقفت وتلفتت، ثم خلعت عباءها وشمرت ثوبها المزين بألوان صاخبة. بدت ساقاها بيضاوين كأنما يحاكيان زبد الماء.

تعجب من بياض النسوة في هذا المكان النائي.

حاول أحد الفتيان أن يتقدم عارضا خدمته فنهرته في قـــوة، وخـّــر بعيد. ثم زامت وهي تواصل دفع الدلو.

– ما تستحي على وجهك.

راحت النسوة يكركرن بأصوات رفيعة مصحوبة بشهقات تنتـــهي بصوت كأنه فقاعة انفجرت.

اخذت امرأة، فتلفتت.. كانت قد شعرت بالتصاق دافـــئ يأخـــذ عجيزها.. ابتسمت لها وهي تطوح بخصلات شعرها.. اعتدلت.. سألتها عن زوجها.. عبست وقالت في تبرم، وهي تخب بقدمها في الماء المتجمع.

– ما نظرته من سنين خمس.

تتلفت النسوة، ثم يستدرن، ويصببن الماء على أجسادهن.. حتى بدا الأمر عجيباً ومثيراً.

كان الشيخ الذي يتولى أمر البئر.. قد أشاع أنه يشفي الأمــراض.. خاصة ما يتعلق بالجلد.. والباه..

طيرت الأوجاع الخبر.. جاءت القوافل.. وعبت النساء من المياه ما يكفي لحياة بأكملها، وضاق المكان بمرتاديه حتى اختلط الرجال بالنساء.. وترددت عبارات.. الماء الشافي من كل داء يفــك الأعمــال ويفشــل المسحور، يحيل الرجل ثورا، يزيل نحس العذراء.. يساعد علــى اعــتلاء المناصب!

جاءه الآمر بالمعروف ونهاه عن استضافة الناس وطالبه بزراعة حبــة البركة، والشمر، والريحان، والنعناع الجبلي وحذره في قوة أن يعود لهذا الفعل، فهو نوع من الشرك.. والتزمه وهو يطمئن على جيبه الممتلــئ – الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق.

ونبهه إلى أن النية قد تتجه إلى تحويله إلى منفعة عامة.. لكن امــرأة ماكرة استطاعت أن تجبره على ترك المكان، حين غزته، وشغلته ثم أخذته إلى قريتها.. البعيدة.

سنوات... مرت..

كان أمر البئر قي يد أخيها.. يديره مــن وراء العيــون، في تكــتم شديد..جمعت ثروة، واستطالت مكانة..

لكن السر ذاع.. وافتضح.

طردت الرجل.. فعاد إلى البئر من جديد.. وغرس شجرة آراك أمام باب العشة تذكره بأيامه التي ولت، وبحديقته التي طالت وامتدت.

وعاد البئر يروي الناس والدواب والشجر. لكنهم لا يملون الحديث حوله.. ويأتون إليه.. وفي نفوسهم هواجس وأمنيات تروح مع الهواء المثقل برائحة النعناع البري.

لكن خبر العرافة لايزال يأخذ مساحة من أحاديث النساء، كل واحدة تحكي كأنها العليمة.

في زهوة المكان وفرحته بالنساء اللاتي يأتين للعلاج وتدبير الوصال.. حطت العرافة بعنزتها السوداء المحجلة بالبياض.

كانت ترتدي أثوابا متداخلة الألوان، ومتهدلة على الصدر والأكتاف. أنفها الغليظ بحلقته النحاسية يخطف البصر. على كتفها تضع عقودا من الودع والكهرمان وتمسك في يدها بزمبيل مليء بجذاذات من الأقمشة والمناديل جمعتها من البيوتات التي دخلتها، والحارات التي جاست دروبها، والقنن العالية التي صعدتها.

لم ترفض أحداً، وما تمنعت عن قراءة الطالع.

اختارت مكانها قريبا من البئر، فرشت سجادتها وأحكمت حبل عنزتها.. رقيقتها حيثما ذهبت.

قبل أن تغيب الشمس تكون قد قرأت طوالع النســاء والرجــال، وتكون قد اختارت الرجل الذي سيذهب إلى من تنتظر.. وفي يده علامة من العرافة تكون – غالبا جذاذة من قماشها الملون.. تفتح له الطريــق.. ليلجه.

لكنها أخذت عترتها ورحلت بعدما تغير الحال، ولزم الشيخ عشته.. وأشرف على البئر.

في عودته كانت خطوته مشدودة إلى الصخر.. وسأل نفســه هــل يمكن أن يقفز مرة أخرى بمثل هذا الزهو؟.. ساقاه تنفردان في عزم مــن يخاف أن يسقط في فراغات الصخور، أو تنزلق قدمــه علــى الســطح الأملس للصخر.

خشي، وارتعب أن ترتخي عضلاته فيهوى...

شد جذعه، وثبت قدمه وقفز..

واجهته المساحة المفروشة بفتافيت الصخور، التقط حجرا ورمى بــه في اتجاه البئر ميمماً شطر جماعة الرحلة ورياضيتهم المفضلة.

***

البنت التي قدمت لها قلبك، تركتك للصحراء، ترعـاك، وتجتـث جذرك. خاطت فمها ولزمت صمتا مريبا، هذا الصمت الذي يناوشك في رسائلها.. والعبارات المختزلة كحد السكين.. لقد تغيرت.. وكفى.. في إحدى الرسائل كتبت سحلمت بزهر البرتقال فوجدته بين يديك حـبلا من الشوك»..

وأنت الذي ارتحلت من أجلها تقول لك: إن صدرك يضن بكـلام الحب.. ألا يكفيها أن رسائلها تتأخر.. فتحجب عنك أحوال قلبها..

أنت الجميلة.. وبسان الورد، حين أتكئ على حافة عينيك، أخشـى أن تأخذيني بين أهدابك وترتخي عليّ.

أمها التي فاجأتك وأنت ترحل في عينيهـا قالـت وهـي تبتسـم، وترمقك.

– تعلم الإبحار.

تجتاز الجزر في إبحارك.. في لجة المالح، تمخر العباب، وتركب الموجة.. وتكتب لها على قدر ما تكتبه «أنا كالزورق فيه، هو بحر لا يحد..».

ما الذي أصابها وهي تكتب غاضبة كيف لا تحدني.. مـن لا يحـدد محبوبة لا يحب».. يا الله..

أنت مرصود فوق الحصي، والصخور.. تغريـــك أوتـــار الـــريح.. لكنك. تعزف على وتر الغربة.. يقتلك الفراغ، وتصدمك النسوة البيض فلا تغازل، ويقتحمك الصخر.. والرمل والوهن.

تأتيك العبارة كاوية كحصاة مدببة ما الذي حولها، فبدل حســـها!! أهي حالة تأتيها!!

وهي تسير بجوارك في اتجاه شرفة نادي المعلمين.. حاولـــت لفـــت انتباهها.. إلى النيل والقوارب الصغيرة، ووهج اللمبات، وريـــح رخيـــة تهب.. جذبت ذراعها منك.. واجهتك وقدمها على السلمة الأولى مـــن المدخل، وقالت:

– لقد كففت عن مداهنتي...

وتأخذها قسراً، وتجلسها أمامك والنيل خلفها، يغريـــك مـــن وراء ظهرها أن تبوح لها.. أن تقول إنها أخطأت حين وصفت حديثك عنـــها بالمداهنة.

يا الله..

– أهي المرأة التي تحب النفاق في القول.. والفعل.. أتقصـــد هـــذه البنت، ألا تكف عن حديث الحب؟

كتمت بسمتك. وضغطت لسانك وأنت تستعيد جهـــد المـــرأة في الاحتفاظ بعشقها «..تكدح المرأة كدح الإبل..»..

ماذا لو بحت بالقول.. أكنت تداهنها؟

تفرد الشعر المنسدل عن جبينها، وتحدق في عينيها وأهدابها تتسارع كأنما تحاكي خفقات القلب.

أدارت وجهها.. فلمحتها. كانت تقرأ الفنجان، وترمقها.. اعتادت أن تراها في المقاصف، والنوادي القريبة من النيل.

أنيقة، محتشمة.

أشارت إليها فأمهلتها.. وأومأت.. سحبت أصابعك من راحة اليد الساخنة كي يضع «العامل» فنجاني القهوة.. في الرشفة الأخيرة.. حدقت فيك، ثم قالت: وهي تحرك الفنجان.

- الحديث في الحب متعة صافية ثم ضحكت، وقالت وهي ترمقها:

- لم أر جميلة لا تكذب.

وحين اعترضت أسرعت وقالت:

- الكذب في الحب متعة.

وراحت تحدثك عن عالم جديد، وبحر تقطعه، ومكان تقطنه، ومسافة تفصل بينكما وحب يتقد على البعد.

ثم نكسب الفنجان وهمست مداعبة.

- ليس في قلبك إلا صورتها.

وأشارت إليها.. فابتسمت وداهنتك.

وها أنت تقتل وقتك الذي يتمدد فيك وحولك كأفعى.. ولا تجـد أمامك – كي تنسى وتبتعد – سوى الإبحار في البنت التي تتأبى بوجهها عليك، وبصمت حروفها الشحيحة إليك.

أيتها البنت كفي عن الدلال وابعدي عن غوايتك، قربيني منـك.. كي أجتاز المدى إليك.

وخففي حلولك في الشرايين والأوردة.

***

الموعد بعد صلاة العصر.. والمكان برحة واسعة تبدو كالحوش الذي يتخذه الشباب مكانا للعب، ولمباريات كرة القدم.. يبعـد قلـيلاً عـن العمران يصله بالديار المتناثرة دروب مفروشة بالحصى الناعم المـدكوك بفعل الحركة الدائبة.

تقف على جوانبه عدد من الأشجار المورقة، وثمة مساحات متفرقـة من النجيل تفرش الملعب، وقوائم المرمي في الجانبين كالحة ومتآكلة.

تزايدت أعداد المشاهدين، وراحت تلتف حول منضـدة صـغيرة.. يجلس خلفها رجل حاسر الرأس، وأمامه علبة ملفوفة بـورق مفضـض جميل، وحول عنقه تتدلى صافرة زرقاء اللون.

علت الصيحات واختلطت:

على الأطراف البعيدة وقفت نسوة تلفعن بعباءات ثقيلة وأسـدلن الخمار، وبدت العيون بأهدابها المكحولة تترصد المكان وتجول فيه، قبضن على أكف الصغار واشرأبت رءوسهن.

جذبه الشيخ من يده وبدا كأنما ينهره.

– وين كنت؟

– بهرني المكان... وشغلني.

– انتظرناك على الغداء.

وضحك وهو يلوح بيده ناحية جماعة المعهد.

– الطعام لا ينتظر..

كوّم الطلبة ما تبقى من طعام.. وحملوا برادات الميـاه الصـغيرة.. ووضعوها فوق شبكة السيارة «الوانيت».. قطع المسـافة في هرولـة، واستخلص لنفسه بقايا من خبز التميس وبيضتين مسلوقتين، وقطعة مـن الجبن، وعافت نفسه ما تبقى من علب التونة.. ودس في جيبه إصبعا مـن الموز..

أقبل على الطعام في شهيه لم يتعودها من قبل.

تناثرت جماعة الشباب في حلقات.. في الوسط تقف الكباش متأهبـة للمباراة.. والمناطحة.. القرون غليظة ومدببة عند الأطراف..

ملتفة.. وملتوية.. ناتئة، ومدلاة.. حتى لتبدو في إطار المشهد كدغل في الأغصان الجافة.

يقبض الفتي على الرسن وينتظر.. إشارة الحكم.

الزينة التي تعلق بالكباش تلفت النظر وتكشف عن الذوق الجمـــالي لأصحابها.. تعالت الصافرة.. وطاف صوتها بالمكان...

دارت عين الشيخ بالجمهور المحتشد وجهز بصوت مسموع.

– لهو «لا يقره شرع»..

التقط الرجل الذي يمسك برسن كبشه عبارة الشيخ، شـــعر بأنـــه المقصود، وعليه أن يرد.. ولا يتجاهله..

– هو ما عهدناه من الآباء..

ألا يشابه الأمر كرة القدم!!

– لكن البهائم تتألم؟

أدار رأسه.. وحدق فيه والغيظ يطل من عينيه.. فالوقت لا يتحمـــل مجادلة، وصفاء الذهن مطلوب.. لأنه ينعكس على حالة الكبس، وعينـــاه تأخذان الوه كله معه وهو يناطح الآخر.

حالة من المزاج تنتاب الحيوان في حلبة المنازلة.

كالبشر تماماً، يخاف، يحرن، يتباطأ، يهرب، تدور عيناه في المكان كأنما يفكر، أو يبحث، أو يجمع قواه الهاربة.

هو يحن إلى وجه صاحبه الذي يحفزه، أو إلى لون يثير لديه الدافع.

وكالبشر يتحين الخصم تلك الحيرة الطارئة ويبادر.. فيروح يلف حول نفسه، أو حول الخصم متباهيا، وهو يدرك أنه يبث رعبا في قلب خصمه، وقد يفجأه بطعنة مباغتة يترنح بعدها أو يسقط.

ظهر عليه الغيظ ثانية فاحتد قائلاً:

– اطمئن لن تشكو..

لم يتراجع الشيخ، وتصور الرجل أن الأمر مقصود لإثارته ونقل الحالة إلى كبشة – المناطحة لا تستقيم بهذه الصورة..

– كيف نطمئن والقرن يبقر البطن ويسيل الدم.

وبلغ الانفعال مداه، وأفلت الرجل الرسن وقال هازئا:

– سأجمع الغنم لتخطب فيهم وتحرضهم علينا.

هذه المرة تراجع الشيخ، أحكم غترته وأسبلها على الكتفين ودس أصابعه في لحيته البيضاء الكثة.. واندس وسط الحشد.. وتوارى..

أعلن الحكم بدء المسابقة.

اختال الكبش وتقدم، تزينت رقبته بعقد من الترتر الملون، وأحاطت قرونه دوائر نحاسية كالصاجات، وكان كلما خطا يحدث صخبا ورنينا موقعا يجذب عين الآخر المتربص به والذي تجرد من كل زينة.. إلا من لون بني طبيعي ينتشر في الصوف الأبيض فوق الظهر وحول الأرجل. اعترض صاحب المجرد على وجود الصنج الدائرية.. التي تحدث جلبة «تخبل» العقل وتشتت الانتباه. وتؤثر على زمن المباراة وكفاءتها، فلا يتناطح بالجهد المطلوب.

تقدم الحكم وجرد البش من الصنج وترك عقد الترتر الملون.. واطمأن على مقاييسه بين الاثنين.. من .. ضخامة وامتلاء وحجم وعدد القرون، وطولها، وامتدادها، وتشعبها..

وخلو الصوف من أية أدوات حادة مدسوسة.

حين تقاربت الرأسان لم يتناطحا.. تلامست القرون في مس خفيف وكأنهما يمارسان نوعا من الاختبار.. مالت الرأس جانبا وخطفت العين نظرة إلى المالك يلتمس منه دعما يحتاجه..

انفصلا فجأة وتراجعا، الرأس منتصبة، والقرون تقدح، وخمشت الحوافر الأرض فثار غبار الرمل.. طأطأ كلاهما الرأس واقتربا، تناطحا بقوة، وتشابكت القرون.. ظلا يتناطحان، يستديران، يكران يفران، تلتصق الرأس بالرأس في تدافع.. والأرجل الخلفية تنغرز في الأرض.. ينفلتان برشق القرن البطن في قو فيثغو في صوت كالصراخ النادب.

توقف الكلبش المزين بالترتر فجأة.. كان العقد قد انفرط إثر نطحة قوية.. تساقطت مشغولاته الزاهي، وتناثرت حوله، توقــف، ثم تلفــت، وراح يتشممها.

بدا كأنما يستعرض ولا يلقي بالا لخصمه.. كان يساير نفسه، أحس أن شيئا منه سقط أن جماله انتقص وأن الآخر حقد عليه لخلوه من هــذه الصفة.. الفتى الناحل الذي زينه.. وكان يزينه في كــل مناطحــة.. راح يصيح، ويشير إليه أن يتقدم، أن ينسى قليلاً ولعه بالعقــد، أن يتناســى صورته التي تملأ المرآة، وألوان الترتر والشراشيب الملونة تتدلى حتى تكاد تغطي الرقبة تماماً.

ما الذي جعله يقدم على هذه العبارة التي جعلته يتبــاهى ويتناســى المطلوب منه؟ هو نفسه كان يتمنى لو فعل.. لكن ماذا يقول للناس؟..

وضح للمشاهد أن الكبش المختال أصابه الحزن، وأن حيرة تملكته. وقف متبلدا تعكس عينه حالة من عدم الاهتمام.. ألا يخشى هذا الآخــر الذي يتربص به!

يا للكبش الغبي.. ها هو سيفوت على الفتى النحيل نصــراً تعــوده وفرحة تظل تلازمه أياما حتى يعثر على أخرى تسعده.

وهؤلاء الذين يتابعونه، ويصيحون.. لن يستمتعوا بما يرونه فالنتيجة محبطة.. وغير كريمة..

في الجانب الآخر، كان الكبش يتربص وينتظر.

اندفع في اتجاه المختال الحزين.. دون مراعاة لمشاعره.. وحالته المؤلمة.

طعنه بقرنه الحاد طعنة قوية أمالته، وأربكته فسقط علـــى قوائمـــه.. حاول أن ينهض فعاجله بنطحة قوية من الخلف أخذت رأسه إلى الأرض فاشتبك القرن بالنجيل.

دار حوله دورتين، هبشه بحوافره، وكان كلما رفع قائمتيـــه فاجـــأه بنطحة تعيدة إلى وضعه المهين.

بدا أنه استسلم.

أعلن الحكم النتيجة فاز المجرد.. رفع رأسه مزهواً بالنصر أصدر من صدره المنتفخ «مأمآت» متوالية بدت له كأنها نغمات على طبل مجوف.

صاح صيحة النصر، فردد الجمهور مأمأته.

نهض المنهزم متخاذلا، وعيناها ترمقان بقايا الترتر الستائر.. ورأســـه تدور باحثا عن صاحبه الذي هرول إليه.. أخذه في صدره وظل يمســـد ظهره في حنو بالغ.

حاول الآخر انتهاز الفرصة فقفز ناحيته، وراح يلاحقـــه وهـــو في حضن الفتى، غضب الجمهور فأسرع صاحبه، وقبض على رأسه ومضـــى به في زهو واضح.

والحكم يقدم هديته المفضضة قال «الششة» في احتجاج:

– نصر رخيص.. شغله الترتر عن المناطحة.

كاد الفتي أن يختنق. ألم كاو يمشي في صدره وهو يلوم نفسه على تلك العادة التي جلبت عليه هزيمة نكراء.

برز الشيخ من بين الحشد، ووقف قريبا من الحكم.

وقال في صوت عال كأنما يعظ:

– حب الذات يورد الهلكة.

انسحب الناس دون أن يبالوا به..

– لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر..

تعالت الضحكات.. ثم خفتت شيئا فشيئاً.. وحل صمت صحراوي مخيف..

***

في الصباح و«صابر» يدخل من باب المعهد، لمحه الحارس فأسرع ونادى عليه.. اكتسى وجهه بملامح جادة واتخذ سمة من يهم بأمر ما.

لم يخف نصيحته – على غير العادة– وبدا كأنما ينبهه.

– المفش – حقك– وصل – دير بالك..

وقبل أن ينطلق للقاء الموجه استمهله ونطق في خفوت..

- بعد الدوام أبغيك في كلمة.

لم يجب.. ومضى صاعداً..

حان موعد التوجيه..

كان الموجه صديقا سودانياً، يقرأ جيداً ويقرض الشعر في المناسبات.

لم يبدأ طابور الصباح.. تجمع الطلبة في الفناء، بدوا رجالا أو شارفوا على هذه السن.. يحرصون على الحضور يوميا لضمان استمرار المكافآت المالية التي يتقاضونها شهور الدراسة، ظلوا يرددون على مسامعهم: أن المرحلة الابتدائية تحتاج إلى معلمين وطنيين ليحلوا محل الوافدين من العرب.. سعودة الابتدائي مرهونة بكم.

شعر الطلبة بزهو طارئ.. لكنه زهو سرعان ما يغيب طالما يضمنون المال.. من عادة الموجه أن يبكر في الحضور، ويشارك في طابور الصباح، ويتابع النشاط الذي يؤديه مدرس التربية البدنية وهو يقوم بتوجيه الطلبة لأداء التدريبات السريعة والتي تجلب النشاط البدني والذهني لهم.

لا يغفل الموجه تدوين ملاحظاته..

وكان يسعد حين يجد بالمدارس التي يشرف عليها من له اهتمامات أدبية.

وينتظر في شوق كلمة الافتتاح في طابور الصباح.. والتي تعكس غالبا المناسبات الوطنية والدينية والموضوعات العامة.

أجاد الطالب القراءة، ولون في صوته، وحدد إيقاعات الفواصل وأدرك أنه مدرب على الإلقاء.. وأن تكوينات الجملة والصور التخيلية تكاد تبتعد عن المستوى اللغوي للطالب.

رمق «صابر» من بعيد وابتسم..

من عادة المتعاقدين في المناطق النائية التي تخلو من استراحات خاصة.. أن يستضيف الموجه واحدا من المتعاقدين إن تعذر السفر ويتعذر السفر في القنفذة دائما، لطول الطريق ووعورته وعدم تدبير الوسيلة بسهولة.

تعود «الميرغني» الموجه السوداني على أن يترل ضيفا لليلة واحدة على مختار.

في نهاية الدوام لمحه الحارس بصحبة الموجه فتكدر، تمنى لو وجده بمفرده حتى يسر له بطلبه. اليوم.. الموعد النهائي الذي قطعته حرمته عليه أن يخبر صابر بأمر الدرس الخصوصي.. وإلا فامتناع البنت عليه سيطول.

في نهاية الدوام لمحه الحارس بصحبة الموجه فتكدر، تمنى لو وجده بمفرده حتى يسر له بطلبه، اليوم، الموعد النهائي الذي قطعته حرمته عليه أن يخبر صابر بأمر الدرس الخصوصي.. وإلا فامتناع البنت عليه سيطول.

وتقدم.. وهو يدمدم في تحد: سأحدثه ولو كان في معية الأمير...

ونادى عليه.

التفت إليه وواصل السير..

يعلم أنه يريد أن يفضي إليه الأمر الذي يمثل رعبا خالصا.

يود لو ينسي. ألا يحس أنني أبغض هذا الأمر.

لكنه صاح في قوة وهرول ناحيته وشده من جلبابه..

– أزهم عليك.. ما تستحي!

ضحك «الميرغني».. تعود على خشونة القـــول الـــذي لا يقصـــده صاحبه.

وتنحى قليلاً وقال: الرجل يريدك.

شده من يده وانتحى به نحو نتوء جبلي، وقال متخابثاً:

– أدري أنك تعرف.

– لا أدري شيئاً.. قل..

راحت كف تشد أطراف الغترة، وتسوي جوانبها، ومست أصابعه ذؤابات اللحية المحناة وبدا مرتبكاً:

– حدثتك الحرمة عن المطلوب.

– مطلوب .. إيش!

وبانت أسنانه الصفراء في اهتزازة مفاجئة لشفتيه:

– تعلم البنت.

صوح برأسه ورنت عيناه بعيداً.. وتنهد:

– الشيطان – والعياذ بالله– ركب البنت، وتبغي تدرس، وتكمل.. ومعلماها أجهل منها.

لزم الصمت، وعيناه تتابعانه.. كان الرجل قد وقع تحت ضغط شعوري فاض على ملامحه التي ارتعشت في رجعات متوالية.. وخلا الوجه من عبسته وعينه من مكرها الذي عهده فيه.. ورمق الميرغني الذي كان يتباطأ في سيره كأنه يقف.

– تدري.. الأمر صعب..

وتأفف وهو يشير إلى الموجه الذي مل من الانتظار.

– الأمر عندكم صعب جدا.

بوغت به يرفع صوته كالنداء الساري في الفضاء الساكن.. أدار الميرغني رأسه، ومضى متباطئاً:

– العجوز قالت إنك وافقت.. بشرط..

أن أحادثك.

وشده بقوة وقال:– وأنا الذي أطلب منك هذا المعروف.

– أهو معروف؟

– نعم.

– إذن.. المعروف بلا مقابل..

تنهد الرجل، وشعر بحمل ثقيل يتزاح من فوق صدره.. وانفرجت أساريره.

– يرضيك ابتعاد البنت عن الشيبة..

لمعت عيناه، ورأى فرحة معقودة كأنها دمعة تريد أن تنهل.

– ماذا بقي من العمر حتى أقضيه في البعد عنها؟! ابتسم صابر وأذعن لمطلب الحارس.

وهاجسه شعور لابد.. بأن الدرس المعروض عليه كالقدر لا يقوى على رفضه.

لم يعلق «الميرغني»..

مضيا يتسامران ويتضاحكان.

حين ولجا الباب وجدا مختارا متحررا من ملابسه، ضج صائحا لمرأى الموجه وهلل في سعادة «هلا بالزول» فرش البشر قماشته على الوجوه، وراحا يحتضنان.

خلع صابر جلبابه وارتدى منامته.

عليك أن تغير ملابسك.. قالها مختار هو يدفعه أمامـــه إلى حجرتـــه، ويلتفت إلى صابر لفتة دالة وعاها.. وفهمها، لم يعد صلاح بعد.. فرجب عليه القيام بإعداد الطعام.

علاقته بمختار لا تسمح لأن يطالبه بعمل إلا إذا أقدم هـــو عليـــه، ويحترم سنه، وشواغله النفسية.

على غير عادته قدم مختار ثلاث زجاجات باردة من الكولا.

توقف فجأة وهو يجهز السلطة.. كان صوت الموجه عاليا وهو يقول في تؤدة: ولو.. أحب الشاي..

ابتسم – طواعية– ورائحة البصل تعلق بأنفه..

أما مختار فلقد أضاءت وجهه سعادة حقيقية، وهو يسمع لازمته.. في الحديث– وهي تتكرر وتتردد على ألسنة الأصدقاء والزملاء:

– ليس في البيت إلا التونة والتميس والجبن المطبوخ.

وعلا صوته زاعقاً:

– ماذا تفعل.. تفاجئنا دائماً.

– وماذا تفعل لو أخبرتك؟

– كنت تزوجت لتخدمك؟

شعر الميرغني بخجل طارئ.. وكادت النوبة تأخد مختار فخرج صابر سريعا وهو يعلو بصوته المرنم.

– أحلى سلطة من صنع إيدي..

أعاد العبارة ومط الصوت فانخلع مختار ضاحكا وعلق مندهشا.

– ماذا جرى لك! ليست عادتك.

لم يشاركهم صلاح الطعام. وصل متأخراً..

كان الليل يصارع قسوة النهار ويغافله حتى يسحب منه لهيبه الساخن.. ويدر في مدارات الأرض واسعة الأرجاء حتى يبترد الهواء ويخف اللهيب. في لحظة الانسلاخ تعود الباب على حركة اليد القوية تدفعه بلا رحمة، ليدخل صلاح في عجلة.. وهرولة.

هزه مرآه.. وهلل له وسعد. وذكره بنوادره في جولات التوجيه، وجلس في مواجهته.

توقع أن يكون دورا في الحديث، أو خوضا في النميمة، أو تلخيصا لمشاهدة اليومية، وخفايا لفتاته، ونظراته المارقة، لكنه حين فهم المراد تأفف ورفع رأسه تجاه صابر.

أسرع مختار يقول في نبرة عطف:

لقد تعب في تجهيز الطعام.. وأنت... لا نكاد نراك.. عقوبتـــك أن تعد الشاي.

عقب الموجه وهو يطالبه بسيجارة:

– يذكرني شايه. بشاي ليالي الحسين.

نتر صلاح جسده مرة واحدة وغنى معا يا عـــيني.. فـــرد ذراعيـــه وحدق في الميرغني.

– بشرط.

– قل.

– تحكي لنا نادرة من نوادرك.

هز رأسه موافقاً...

سكن البراد فوق الصينية في جلال، تناسب منه خيوط هشـــة مـــن البخار.. تحيط به أكواب صغيرة مزينة برسوم باهتة الألوان من الجوانب. طبق مسطح تلمع فيه قطع صغيرة من السكر. ملعقـــة صـــغيرة ذهـــب طلاؤها الفضي في المقبض.. أعواد النعناع الذابلة المرشوشة بالماء يصحو أريجها من هجعة ذابلة.

على ضوء شاحب ينفلت من الركن يمد يده، يلتقط قطعتين ويصب الشاي من البراد الصيني.. ويشرع في تحريك الكوب في بـــطء.. وهـــو يصوب عينيه إلى صلاح الذي يستحثه ببريق عينيه..

رشف رشفته الأولى.. وهز رأسه راضياً..

شمّر كم جلبابه الواسع.. وعقده عند الكوع، واتكأ علـــى ركبتـــه وشرع يحكي..

في الجنوب وفوق جباله العالية كان يعمل مدرسا.. القريـــة بيـــوت متناثرة منحوتة في الجبال أو قائم في بطونها.. أو واقفة علـــى نتـــواءات عارية.. يمر بالمدينة مرتين: الأولى حين يصل والثانية حين يسافر.. تعـــود أن يأخذ معه أغراضه من حبوب ومعلبات وسمن وسكر وزيوت وغيرها.

تقترب الحياة من الموات... لا حياة بعد صلاة العشاء..

الطبيعة الجبلية الموحشة أشعرته بالفراغ وبمساحة الفضاء.. يقضـــي وقتا مع الأصدقاء ففي القرى المجاورة.. أفراد قليلة.. ومواطنون تكـــاد تعدهم عداً.. يلعبون الورق وأحيانا الشطرنج.

لا راديو.. لا جرائد.. ولا وجه جديدا يراه إلا حين يأتيه الموجـــه.. وقد لا يصل..

وسيلته في التحرك دباب صغير يحمله أحيانا في الصخور الوعرة..

في جولة له تأخر ليلاً، وفي عودته واجهه ضبع.. المكان تمـرح فيـه الضباع والذئاب والسعادين.. لولا الضوء الذي أرسله من عيون الدباب لكان الآن في رحاب الرحمن أحس بالخوف فاقتني سعدانا كعـادة أهـل القرية، يستأنسون بالقرود فتحافظ على البيوت وتحميـهم مـن أكلـة اللحوم.

قلت زوراته لأصدقائه وأقبل على القرد يلاطفه ويؤانسه. ويلاعبـه خشية أن يمل فيتركه..

في يوم عاد إلى البيت فوجد مع القرد قردة جملت نفسها وتحممت.. حين نظر المدرس إلى القرد مستفسرا.. أقبل عليه، وأحنى رأسه خجـلا، تمسح فيه حين ظلت القردة بعيدة ترنو إليهما.

أدرك أن القرد احتاج إلى مثيله وأنه يضيق بصحبة الإنسان.

حين غضب وطرد القردة حزن القرد وتألم.

لزم مكانه لا يبرحه.. ولم تفلح معه مصالحة.

وفي يوم عاد المدرس من عمله فوجد أغراضه مبعثـرة.. والقـردة يمرحون ويتجمعون لدى الباب، كأنهم يمنعونه..

ظل واقفا بالباب يرتجف، والقردة يلهون والقردة الأنثى.. تضـحك وتهبش الأرض وتقذفه بالحصى.

صاح فلم يسمعه أحد:

جرى قرد فأوصد الباب.. خاف من وحوش الليـــل.. ظـــل يـــدق ويتذلل حتى دخل جاءه القرد الذي لازمه.. فهش له.. وضحك.. أبدى له ندمه.. ومسح ظهره، وأعطاه حبوباً.. وفولاً..

أدرك القرد الموقف، وقبل الاعتذار وصاح بـــالقرود فخرجـــت في ضجة.. جذب قردته في ود واضح ودخل إلى حجرة النوم وأوصد بابها.

لم يبق له إلا أن ينام في ركن صغير من الفناء الخارجي..

ظل على هذه الحال حتى آخر العام..

ألغوا عقده.. كان قد جن..

***

ما الذي أتى بالعصفور الداكن ليقف على الجدار العالي الذي يفصل بين بيتين ويروح ينقر الفتحات ويرسل جناحيه ويطويهما ثم يطير باعثـــا بأصواته الصائتة كأنها رسالة!

أتراها رسالة إليها.. لم تكن ترى عصفورا يحط على ســـنام الجـــدار ويلعب في فتحاته، ويدخل رأسه، ثم جسده إن استطاع كأنما يقيس سعة المكان ويتدرب على بناء عش.

هل يعني أنه جاء بالفأل معه؟.

وهل كتب لها أن تنسج عشها بمساحة خيالها وقلبها يضخ فيه موجة إثر موجة، فتبني القصور. وتركب السماء، وتستحم بندف السحب.

هامت عيناها وتخيلته واقفا أمامها كسنا ضوء بارق يمد يـــده إليهـــا ويطويها، ويحلق بها في الأعالي تصاحبه أسراب العصافير وعلى الأجنحـــة قبرات الفجر، وفي المقدمة يمامة بلقاء تسجع وتروح هي هاربة فتعتلـــي قمم النخيل، وتلتقط حبات الرطب من عوسجها، وتمد كفها فيســـكن عصور زاغب راح ينقرها بمنقاره المدبب فيرعش جلـــدها ويأخـــذها إلى مخمل الدفء. تنبهت إلى وجود الشيخ فوجمت لحظة ثم عادت تســـجع كاليمام.

غيبتها عباءتها فحجبت جسدا جميلا. حجبت معه مشاعر تخشـــى أن يكشفها بعينه المنطفئة.. لكن السكون الذي حط على المكان خافـــت أن ينقل صدى القلب في نبضه الحي، كما ينقل حركة الهـــواء «زقزقـــات» الطير، فصخبت.

قفز قلبها.. وخيالها يدعوها إلى توق المقابلة.. الأمر قرب.. اليوم أو غدا ويتجلى أمامها وبإذن زوجها ورضاه الكامل.

خافت من قلبها أن يرسل رنينه الضاوي فيكشفها..

انقلبت الموجة وباتت خبيئتها.. حين علمت بالأمر..

حقق الشيخ مطلبها، واستكان لها.. داهمته بجسدها فترنح..

والعجوز التي باتت طيّعة وكريمة ولبؤة.. سعت حتى أتت به.. على هواها.

ما الذي تدبره العجوز، وأية مؤامرة تحيكها.

كان الشيخ يراها في عباءتها فيمني نفسه بها.. تظل عيناه راقدتين عليها حتى تطردهما لفتة مفاجئة أو نظرة مؤنبة.. لكنها لا تبخل ببسمة.. تروح وتجيء على وجهها.. كفاه بسمة تسحب الشفة، وتظهر الفضة، وتحدد الأنف وتجلو.. الوجه.. فيظل رانيا وتابعا للوجه حين يتبسم والجسد حين يتمايل.. هل اكتفى.. أم يطمع في المزيد؟ وأنى له؟

تميل إلى الفراش، تشغلها هواجسها، وحسها المشبوب في داخلها تصطلي به.

مازال عقلها لا يصدق أنه سمح بالدرس.. كان الأمر بالنسبة له كمن يتردى من شاهق.. لكنه لا يملك سواه ولا يقوى على إفك جديد ينال قدرته! ومن سيعصر ثمار اليناعة سواه.. تمنى لو ترضى عنه! أن تدعه يقربها، يفك الخبئ فيها، وينحت المكتنز.. كفاه ما فعل.. وكان قبلها. وإن طارت الرقاب – لا يسمح بلفتة، أو بصوت يعلو فيسمعه رجل أو حتى غلام.

لكنه فعلها راغما وباحت عيناه بالمسكنة..

تعلم أنه يطلب الرضا.. ويحلم بتفكك أعضائها على لمسات أصابعه.. لكن الشيخ الذي كأنه اشتراها بماله خجل، فلم يعد يأتي إلى حجرتها فأراحها.. هل زاد انكساره، أم تعطلت أعضاؤه!

وتنهدت.. من لها برجل حقيقي تلاعبه ويلاعبـــها.. ويوقـــع علـــى جسدها توقيع الأسنة..

العجوز نفسها تشتكي منه.. لم يعد يذهب إليها هي الأخرى.. فأين يذهب؟

أتراه تزوج من أخرى وأعرس بها في بيت آخر؟ أتراه فعلها خفية؟

ضحكت وهي ترنو إليه فشهق.. ليس في الحب ملامة.. والأســـر في الحب قيد مرغوب.. لكنها تتمنع وتمعن في قيدها..

التفت في حركة أخذت جسدها في زمة الثوب فتحـــدد.. ونتـــرت أعضاءها، وطيرت ذيل ثوبها.. لعله يرى فينهض وينضو عنه برده.

كادت تبوح صارخة بوجعها وهي تتمدد أمامه، وهو ينظر إليهـــا في ذهول.. كلما هم أنبته عينها في مكمن.. طال التأنيب والكمون حـــتى لم يعد يجدي معه العشب أو الدهان.

طال الأمر.. وتحول شعر لحيته إلى شوك يلسعها فـــازداد تأبيهـــا.. وطال جوعها.. هذه البنت الحرون!..

كان قد خفف من تحفظه، فقل ضغطه وأباح ما كان ممنوعا ومحرما.. لا ينسى أنه واحد من رجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنـــه يمسك العصا عند كل آذان، يدفع الناس إلى الصلاة، وإن أراد الإســـاءة

كتب عن البعض أنهم عصاة، لا يرتادون المساجد مع أنه كثيرا ما ضبط يتجول في الدروب ولا يصلي.. بحجة تتبع الهاربين من الصلاة.

سمح بالراديو، اشترى واحداً جديداً من سوق قابل بجدة، ياباني الصنع.. تغاضي عن الأغاني.. وطالبها بخفض الصوت فلا يحق أن يتعالى صوت المغنية وهي تغني عن الهوى وأسراره والليل وآهاته فصوت المرأة عورة، والموسيقى مزامير شيطان.. واستسلم لرغبتها وهي تسحبه من أذنه كجرو صغير ليستمع إلى ما تبثه إذاعة البلاد من أغان لمطربين ومطربات في البلاد وخارجها.

ويصرخ في لوعة من أفلتت منه القوة:

– لكنني آمر.. يا بنت الحلال!

وتدير ظهرها وترسل شعرها فيحيط وجهها في ضوء يذهله.

– كن آمر في الخلا.. البيت لا..

وتهتز مع نغمات طلال فتكويه هزاته.

– ما أدري.. ما يعجبك في المخنث هذا!

تدور في إيقاع يصاحب النغم.. تتطاول فتتبدى كالفرس الحرون.

تتمايل .. تنحني وتنفرد.. تحبك الثوب فيشهق.. تضغط الصدر وتتكئ فوق رأسه.. وترنو إلى البعيد..

لا يملك إلا أن يدعها.. في لهوها فصغر لسن يحكمها وحالته لا تسر. ظل يردد.. في همس لا يبين. أوقعني نزق الكبار.. ولله الأمر..

غض الطرف عن المجلات المصورة، لم يقو على طمس معالم الصـــور أمام تنمرها. اكتفى بفصل الرقاب، لكنه كان يخادع نفسه ويترك صوراً عارية ويدعي غفلة فيه.

كانت تغيظه وهي تمسح بيدها على صورة الفتاة طيّ المجلة وتقول في اشتهاء صوت صاد:

– أنا الأجمل.

هدلت الحمامات، وطارت في جنبات البيت، وراحـــت الفراشـــات تبث الحب والجمال، اكتنزت العراجين، وفاحت المستكة بنوارها.. وظل كما هو.. حتى ساءت حالته... فتلقفتها العجوز.. وفردت ذراعيها لها.. تجاوزته رامحة.. باحثة عن مطر ينهمر تغتسل به ويندیها.. أو تحتجزه لليلة قمرية في المنتصف وتسكب فوقها مطر القمر الذي يترل من سمائه فيلفها في خيوطه وتستكين في راحته، وتأخذها دعه رحيمة إلى عالم تغفـــو فيـــه القلوب وتنام.

***

قال صلاح وبسمة تطوف بوجهه..

– بعد صلاة الجمعة سننطلق إلى الخلاء..

لم يعلق «مختار» وبادره «صابر» بدهشة كالسخرية

– أي خلاء، كل ما يحيط بنا خلاء.

– البادية.

كان «صابر» قد سع عن الزيارات السريعة إلى أطـــراف الباديـــة.. لكنه لم يذهب، واكتفى بسماع مشاهدات صلاح المتوالية.

لم يلتفت إلى ما يردده «مختار» عن بحثه عن العجـــائز والعبـــدات، واستفسر في تأفف عن السبب.

قال صلاح في إغراء:

– بعد الصلاة يقيمون سويقة يعرضون فيها منتجات أهل الباديـــة.. وبعض أغراض النساء.

ضحك مختار وهو يطفئ سيجارته في ماء الحوض الراكد:

– ألم أقل لك؟

تجاهله وواصل حديثه في جد:

– ستجد هناك بعض الوجوه التي تعرفها.

– وكيف نذهب؟.. على جمل!

– لا تسخر.. سنأخذ دباب الفلسطيني.

– أي فلسطيني؟

– موجة البدنية.

– صاح فجأة. صائد القرش!

اعتذر «مختار» فالجمعة يومه، يغسل ملابسه، ويحلق لحيته ويحف شاربه ويتعطر.. ثم يخلو إلى نفسه.. محتضنا الراديو منصتا إلى أم كلثوم، سابحاً مع نغمات القيثارة في شفافية.

ويختم خلوته بقراءة خطاب من أسرته أو يعيد قراءة الخطاب السابق، ثم ينهض على مشارف المساء، فيغسل وجهه ويقطر في عينيه ليداري الأحمرار الذي أصابها.

في الطريق والدباب يدور حول الكثبان ويعلو الهضاب شاهد عدا من الوجوه التي يعرفها.. رجالا، وطلبة، وأصحاب حوانتي، ورأى على مقربة منهما عربتي جيب متباعدتين، في غمرة العربة بجوار السائق، يلمح امرأة أو اثنتين، وفي الخلف يحتشد الصغار صبية وبنات.

وهو يحتضن صلاح من الخلف اطمأن إلى الطريق وائتنس بما يرى.

على حافة السويقة كانت المرابض، تلوك الجمال الأعلاف.. وتجترها.. ثمة خيمات خالية من الجدران ومتفية بالأسقف الممزقة.

مقهيان بلا أرائك.. يتناول الرواد طلباقم جلوسا علـى الأكلمـة ومقعين. ثمة جماعات وأفراد في الأركان والوسط. عـدد مـن المفـارش العريض رصت عليها بضائع من صنع البدو.

أكلمة ذات طرز مختلفة.. عبوات من السـمن الـبري، أعشـاب صحراوية، وألبان مجففة.. كالإقط ووبر محلوج وجاهز للنسج.. وحبات كروية على هيئة الدوم.. وغيرها.

يدور بعض الصبية الكبار حاملين براداقم الصغيرة.. يعرضون المـاء البارد، والزجاجات المثلجة.. نصبة صغيرة مظللة بملاءة لبيـع أطعمـة سريعة يغلب عليها الخبز، والبيض والفول والجبن، والبصـل، وقـرون الفلفل الحار.

قمب رائحة سائرة في المكان منبعثة من حزم نباتية لها رائحـة نفـاذة تقبل عليها النساء.

قيد صلاح الباب في نتوء خشبي.. أحكم السلسلة ووضع المفتاح في جيبه، تجول على مهل، أهمل صخب البائعات ورمى بصره، لم تعلق عيناه بوجوه عرفها في زيارات سابقة فتبرم.

ظل يتجنب الاقتراب من هذا الولع الطارئ.. وسأل نفسه.. لم كل هذا الحرص على حضور سويقات البوادي؟ كيف يواتيه جسده وطاقتـه قمدر في طرق موحشة؟ كان إذا أزف الموعد يجد نفسه قلقا، كأما علائق خفيفة تستحثة على التذكر وتستعيد صور المكان العالقة.

ويظل شارد البال يميل برأسه في سكون باد، كأنه يصطاد صوتا يأتيه من بعيد.

أتكون النداهة؟ أتتخفى في أجساد النساء وتدعوه إليها كي تـــراه، ويراها عن كثب في غفلة من عيونهن، وتحت عباءاتهن.

خففت عيناه في ضربة مباغتة، شد انتباهه حركة جسد يتمايـــل في عباءة سوداء مرسلة أنحنت المرأة وقلبت عددا من زجاجات العطـــر، في إمالتها التفت العباءة في إحكام متقن كأنه مقصود فلاحت مـــن الخلـــف مجسدة تماما.. طار صوابه.. كاد بؤبؤ العين يفلت غضباً.

لم يخطر بباله أن الحواس تتراسل فتحس المرأة بعين تلسعها فتعتـــدل وتدور عيناها تبحثان عن مصدر اللسعة.

فردت جسدها، فبدت قاما ذات بنيان فارع وممشوق.. راح يـــدها تتقي وهما ممدودا، فأحكمت ثوبها، لكن العباءة التي استعصـــت قلـــيلاً أبرزت صدرا بازعاً، شهق صلاح لمرآة.

كانت بدوية عرفها من زيها.. المنديل الخفيف الذي يشف، المـــزين بأزرار صفراء، وكور ملونة من الترتر، ورسوم عسجدية، وألوان زاهيـــة تطل من فتحات العباءة.

استدارت، وراحت تنتظر.

تشعر أن أحداً يترصدها، أربكها وأبطأ أنفاســها، ثقــل الجســد، ومشت الحرارة على الجلد، واعترته تنميلة راعشة.

ماذا أصابها؟.. ما الذي يحدث لها؟... وهذا الفضاء الواسع الــذي تخب فيه ويدعوها كي تتحرر من ملابسها لتبترد.. وهذه الرائحة الــتي تأخذها بعيدا لتراه مجسدا أمامها.

وانتفضت مبتعدة حين رأت عينيه ترقدان عليها وتأخذالها في وهجج مضيء كأنه ومضة الجمر.

رمح وراءها فشده «صابر» في قوة مبتعداً به عن المرأة.

– ستجلب الفضيحة.

كاد يتوسل إليه وهو يقول:

– دعني أشم الرائحة.

– أية رائحة؟

هدلت شفتاه فبدا الفك هاطلاً:

– رائحة الأنثي.

تأفف في ضيق باد لاعنا اللحظة التي وافقه فيها على الحضور. جذبه صلاح من طوقه – الأنثى تذكرك بالأنثي.

أدرك أنه يقصد زوجته واحتار في أمره.

– مادمت لا تقوى على بعدها.. فلم لم تأت بها معك كما فعل غيرك!

– العيال.

– اصطحبهم معك.. فمعظم المتزوجين معهم أولادهم.

رمشت عيناه، وانعقد غيم شاحب.

– في مدارس خاصة.

قال في تبرم واضح كمن ضاق بالأمر كله.

– أدخلهم في مدارس الحكومة.

سهمت عيناه بعيدا – العيال مجبنة.. ومهلكة.

وعي الحالة فاشتد عليه لائماً.

– أخشى عليك من حركة مجنونة.

ران عليه هدوء طارئ وعهده به أن يصخب في ضجة، وبدا كأنما يحادث نفسه:

– مهلكة!.. لم يضمن ألا يتغير الآباء أو يتزلقوا؟

– أو تتزلق الزوجات.

جاءت عبارته سريعة كمقذوف طائش، فلام نفسه علـــى تســـرعه خاصة وهو يرى على وجهه الدهشة.. والخوف معاً..

عرجا إلى المقهى..

احتسيا الشاي، وأشعل صلاح سجائره.. وظلت نـــدبات الخـــوف عالقة بوجهه.. فران عليه صمت حزين..

وصلته ضجة، تنبئ عن أصوات تختلط.. نهـــض ومضـــى يـــدور في الرحبة الواسعة.

ثمة أكلمة من الوبر وصوف الأغنام وشرائط زاهية من أقمشة تيلية.. شدته قطع صغيرة من النسيج بها رسومات صحراوية.. الجمل، النخلـــة، الصخور، والتلال، السماء، والهلال.. تتداخل مفردات اللوحة في تدرج لوني جميل ينبئ عن فطرة تلقائية في رصد المرئيات.

تناول قطعة أعجبته.. اللون السماوي يترل في تؤدة على المســـاحة فيجور على الرمل ويأخذ صفرته على حـــين يـــنفض طـــائر صـــغير – كالقبرة– جناحيه وكأنه يستيقظ لتوه.

شغلته عيناه الواسعتان، وحركة العقد على صدرها وهو يتماس مـــع اهتزازات الصدر.

– كيف صنعت هذه الألوان؟

– أعجبتك!

صمت فبادرته:– إذن خذها.

رأت في عينيه ترددا فأحكمت شالها وقالت ويـــدها تمشـــي علـــى الأكلمة وتعدل أطرافها.

– لوطمعت فيها وأخذها غيرك.. ندمت.

تعجب صابر من المرأة وأدهشه أن يسبر حسها الفطري ما يعتريه من تردد في مواقف الشراء.

تغلب على خجله وسأل:

– بكم؟

– لك بخمسة.. ولا تزيد في الكلام.

دفع الريالات وطوى القطعة وأحكمها بخيط من النيلون.

شيعته بنظرة طويلة قبل أن تهيئ نفسها للحديث مع امرأة راحـــت يدها تندس بين العقود المختلف والحقائب المزينة بخرز ملون.

فوجئ بصوت مزاحم فالتفت.

كان «صلاح» يقف في الطرف المواجه للمرأة، وبيده عقـــد يختـــبر حباته، ويتساءل ووجهه مشرق ببسمة رائقة.

– كهرمان!

تنوعت العقود ما بين الكهرمان بدرجاته الأحمر، والأصفر وبين الخرز، والفيروز الغامق والشفاف، وخطوط الخرز المتداخلة في رهافة الأسود والرمادي.

لمست المرأة صدرها وزهت بعينيها، وصلصلت حبات عقد الكهرمان.

– هذا زينة النساء.

بادرها قائلا في جسارة:

– الجميلات.

اختلج الوجه وعلا صوت من الخارج.

– البدويات فقط.

استدارت وقالت:

– أفضل من عقود الذهب.

– «حريم» المدن ما يعرفن فضله.

لزمت المرأة الصمت لكنها كانت تتابع الحديث.. فلوحت للبائعة بعقد اختارته. قربته من وجهها وتخفت وكشفت عن وجهها وأمعنت النظر، ووضعته على صفحة الخد كأنما تقيس درجة التناسب في اللون، ولياقته.. العقد من الفيروز.. بدرجاته الغامقة وبلونه الأخضر المجزع..

لبسته المرأة، فتدلى على الصدر متباهياً، متناغمـــا، والخـــرزة الوســـطى تتأرجح في فراغ الصدر في متواليات لها رنين هامس.

علقت عيناه بها، وظل صلاح يردد:

– أبغي واحداً كهذا.

اختارت له واحداً من الكهرمان الأحمر.

– هذا يطرد الأرواح الشريرة.

وقلبت بين يديها عقدا من الخرز الملون، حباته صغيرة وألوانها زاهية وشفافة.

– وهذا يجلب الأرواح الطيبة.

فلتت صوت نسوي خافت وراعش.

– عندك عقد يجلب الحبيب!

تراخت العباءة حين انفرجت الشفاه في بسمة لها صوت كالهســـيس وانعقد الحياء في العيون المسبلة، وخففت المرأة في حديثها.. وطلباتهـــا ولم تعد تجادل في السعر.

ولم يطل صلاح النظر إلى العقد الذي يجلب الروح الطيبة وهو يتدلى من فوق الشماعة.. في زهو وألق.

***

ولجت قدماه البيت..

استقبله الشيخ في ود.. أقبل عليه واحتضنه.. قبل الكتف وشب على أصابعه وقبل الأنف.. وراح يرحب به ويهلل له.. بدا البيت هادئا وجميلا، ولمسات المرأة تتجلى في مساحات الخضرة، والعناية بالنباتات وتنسيق التعريشة، والنظافة التي فاقت تصوره، والروائح التي جابهته منبعثة من مباخر متقدة.. جميل، لكنه لا يقاس ببيت «الغامدي» جلسا على مقعد مستطيل مجهز بحشايا ومتكآت.

وأقبلت العجوز.

قدمت دلة القهوة وطبقا ممتلئا بالتمر وقطعا من الحلوي.

الوجه- الذي يعلمه- مستور بشال خفيف.. غطت كفها بثوبها وسلمت.

انسحبت على عجل وهي تنبه إلى تمر المدينة الذي يجلو الصدر و«يضوّي» العقل.

ثمة حجرتان متسعتان، وتشغلان مساحة عريضة. إحداهما للبنت والأخرى للعجوز، يتواجهان، بينهما ممر ضيق يفضي إلى حجرات ثلاث، يشغلها الأبناء حين يأتون. ثمة حجرة نائية للخزين بها جرار السمن والجبن وأجولة الأرز والطحين وغيرها من مستلزمات البيوت وهو لصق المطبخ لديه كما أخبرته العجوز.

على أجناب الحجرتين شرفات واسعة تطل على الحوش، مسيجة بمقرنصات جميلة وجدائل من الأفرع المزججة.. ثمة درجات خشبية يحيطها سور خشبي مطعم بأشكال جميلة.. في الطابق الثاني امتد سور من الأخشاب، والأفرع المجدولة، والطاقات الصغيرة التي يسمح بإطلالة الرأس، في حين يحجب السور حركة الأجساد وتحررها.

تعلو الحجرات عن مستوى الحوش متراً ونصف المتر فيصبح للجلوس في الشرفة متعة محببة.

تعجب أن يكون للحارس مثل هذا البيت الجميل.. قد لا يضاهي شيئا بالنسبة لبيوت الكبار والأثرياء الذين يبنوها ثم يفرون منها إلى بيوقم ذات الطراز القديم.. لكنه بيت يدعو إلى الزهو بالمقارنة بالبيت الذي يقطنه.

امتد الحوش أمامه وترامي. ثمة مداخل مغلقة تفضي إلى مرابض الإبل أو الأغنام.. حتى يمكن لأهل البيت أن يشرفوا على «الحلال» إن لزم الأمر.

شد نظرة شجرة المستكة تفيء بظلها ونخلة عجوز حولها فسائل صغيرة، وأعواد الريحان والنعناع تطل من حولها..

هبت ريح طيبة نادرة فحملت رائحة طيبتصدره وأنعشته..

– بيتك جميل يا شيخ.

صب القهوة وهز الفنجان في يده..

- المرأة ريحانة البيت.

وامراتي تحب النظام.. و«الحسانة»..

أدرك «صابر» المعنى فابتسم..

- بالله عليك «ليش» تهتم البنت بعلومها..

ما الذي يمكن أن يقوله؟ وبم يرد عليه وهو قادم لأداء مهمته مرغماً.. مهمهة تكتنفها مخاطر غير متوقعة.. يضع نصب عينيه نصائح مختار.. استمع ولا تتكلم.. لا تخرج عن المنهج: لا تصطادك البسمة، ولا تغريك اللفتة.. الضعف من مفسدات القلب.. والغيرة أيضاً.

- أمر طيب.

- ألا يكفيها أنها زوجة.

- ما دامت تحب العلم.

- والله.. لقد أرحت أهلها منها.

- عمل تؤجر عليه:

- من يتعظ؟

- دعها تتعلم.

مسح شعر لحيته بيده، وحبك غترته، ومال عليه قائلاً:

– تدري الأمر طيّ الكتمان.

رد عليه في ضيق مكتوم خشي أن يلمحه فيغضب.

– الله المستعان.

نادي الشيخ على العجوز.

سبقها عطرها، وسارت أمام صابر في اتجاه حجرة البنت.

وظل هو ساكناً فوق المقعد، تروح عيناه إلى بعيد.

لا يغفل الناظر إليه ألماً يمضه وهو يشد وجهه.

قدمته العجوز وانتظرت.. رمقتها البنت خفية فانسحبت.

رنت إليه.. حاسرة الوجه.. الوجه الذي رآه سافرا للحظة وهي تفتح البيت، وتشد مزلاجه.. لم يخل عليها حيلته حين رمي بالقلم ليتباطأ ويتملى.. كانت ترتدي ثوبا أزرق اللون مقصبا بخيوط صفراء لامعة.. وشالها الزهري الخفيف يلم شعرها وينسدل على الصدر.

بدا الوجه بهياً.. تعتريه حمرة في الخدود، وتختال الشفتان بامتلائهما ولونهما الذي يغازل العيون.

خطف نظرة.. احتواه المكان وبهره الجسد واندهش أن يحوز الشيخ كل هذا الجمال.. لكن الغزال يتمرد على القيد ويهدد القناص بالفرار..

لمثلها يخضع القلب ويمتثل لأمر الهوى!..

انتحى جانبا وجلس.. من الباب المفتوح لمح العجوز وهي تتحـــرك خارجة من حجرته.. أو داخله، تسرق لفتة مفاجئة.. لعلـــها تطمـــئن أو تنفذ رغبة الشيخ.

رأى سعفات جميلة معلقة على الحائط وصقرا محنطا بمنقاره المعقـــوق الحاد وقطعة من نسيج وبري للحرم المكي.. ظهر فيها الطائفون، وبـــاب الكعبة ومكان الميضأة وحمامات بيضاء تحوم في أفق النسيج السماوي.

شده كليم جميل الصنع في حجم سجادة الصلاة معلق من أطرافـــه على الحائط المواجه للشرفة.. به رسومات جميلة لجمل صغير وجرو بـــدا يضيء، ويتمسح بأرجل الجمل الذي تدلت رأسه ومط شـــفتيه ليلـــتقم أوراق الكلأ النابت في مساحات قليلة.

أغراه المشهد فدقق فيه.. كانت الأعناق مفصولة، يحدها خط طـــولي كأنه يفصلها عن الجسد.. فتصوير الكائنات الحية غـــير مرغـــوب فيـــه ومحرم، واجتراء على صنع الله وخلقه وابتداع مشـــابه لصـــنيعه.. ولأن الكتب التعليمية تتضمن مثل هذه الكائنات الحية ومنها البشر فإن يـــدا غليظة أجهزت على الرقاب وفصلتها.

راعها خجله، وتداخل أعضائه.. كأنما يخشى مزاحمة تدهمه.. خطت خطوتين وأخرجت من ثلاجة صغيرة عبوة من الكولا.

قدمتها إليه.. وهي تواجه قطعة النسيج وترنو إليه..

- أعجبتك؟!

انتفض لصوتها الجميل الذي يحمل غنه تشي بالشجن..

حسدها على النعم التي حباها الله بها.

- أستاذ.

رنا إليها... وانتظر.

عليه أن يجيد الاستاع، ويتخلى عن الرغبة في المحادثة وطرح الأسئلة، ويظل واقفا عند الحل الفاصل بين انفراجة الشفة، والتقاط الصوت.. هز رأسه ولزم الصمت..

لم ينظر إلى صدرها وهي تنحني عليه، فحزنت.. لمح ذلك من غضبة في عينيها.. جلست على حافة المقعد وأطاحت بخفها.

القدم كبيرة وممتلئة.. ربما لا تناسب في مقاييسها تناسق الجسد، ولكنه قد يوحي بثراء عضوي يبهج ويسعد كما يقولون:

نهض ومرق خلف المقعد الذي تجلس عليه.. ومضى تجاه الباب الموارب وأحكم فتحه.

طالبها بإخراج الكتب.

أجابت في صوت له شقاوة المراهقة:

- أية كتب؟

- منهج العربي..

قالت وهي تمعن في الغضب.

- أحرقتها.

اندهش فاحتد:

- أحرقت الكتب!

- نعم.

- إذن ازهمي على العجوز.

ازهمي.. كررتها وهي تحدق فيه.. تختبر صبره وتخاتله...

- أغضبت؟

- أنت تعلمين لم أنا هنا؟

مدت يدها فأخرجت كتابا من طية عباءة مطوية...

- بغيت أتباسط معاك.

وهويدم يده لتناول الكتاب، تشبثت به حتى كاد يتمزق.

ما الذي يمكن أن يحدث في المرات التالية.. في أول لقاء.. كشفت عن نفسها.. باحت حركاتها بما يعتمل داخلها.. ما الذي يمكن أن تفعله؟.. ماذا تخبئ هذه البنت في المرات القادمة!.

خشي من تلامس يساء فهمه فزجرها قائلاً:

– إلى الدرس.

أخرجت في همّة – أدهشته– الكراسة والقلم، والمسطرة.

فتحت كتاب النحو على الدرس الذي تغيبت عنـــه... ودفســـت إصبعها في أول الصفحة.

– النعت.

اختبرها في تدريب نحوي سريع.. قرأت نصا شعريا...

كان صوتها – مع أخطاء القراءة– جميلاً وكأنها تدربت على توقيـــع الحداء...

مرت الساعة ثقيلة الوقت كأنها دهر بطوله...

***

تختال البنت أمامك، وتخايلك.. تخادعك وتقتنص صورة مغايرة، تمعن النظر وترسل عينيك تستطلع وتخبرك، أخذتك الهيئة التي تجددت فرحت تفصل الصورة المستدعاة عن الجسد القائم أمامك في لدانته وامتلائه.

أجهدت نفسك كي تبعد خطيبتك عن هذه الهيئة المختلسة وأنـــت تغوص بعينيك في ثراء الجسد، ويكاد قلبها يرسل إليك إشارة التحـــذير

لترتدع.. يطالبك أن تقنصه وتترفق به، وتستمع إلى نبضه الدافئ فيدفئك، وتكتفي به.. في غربتك.

وتأخذك النمنمات.. تكويرة الشفة، حمرتها ورعشتها، زمتها وبسطتها، وتخالها تحذرك، وتشهد عليك.. وعلى ضعفك الذي يغالبك، ووهنك الذي اعتلاك فأرهقك.. من أتى بشعرها في هبة أزاحت الشال الخفيف.. فانسدل حتى أعلى الخصر.

واستدعى نسيماً رقيقا وبعثره.

فانبرت الأصابع الطويلة النحيلة وأمعنت في تهديله.

والصدر الذي تراه يتسع بما لا تتصور ليس صدرا لخطيبتك، فلماذا ارتسمت ملامح الوجه وغاب الجسد.. يضايقك أن تكون البنت قد شاغلتك، وتمثلت خطيبتك.

وأفسحت صدرها وقبابة البازغة.. وهي النحيلة، جميلة التقسيم والمحيا.

وجهك المخادع دخل وجهها الأبيض وزينه، لونه بسمرة محببة، واتكأ على الكتف وحرك الذراع والأنملة التي لاحت نافرة في الإصبع السبابة، كأنها نصل حاد يجابهك في حسم ويحذرك.

ما أغرب رعبك! كأن داهية حطت عليك... انتفضت، حدقت في البنت طويلا حتى كدت تخيفها، وتظن بك الظنون.

نهرتها، زجرتها، حذرتها أن تتلبس بوجهك المحبوب.. فتلوثه، أو تكدر سمرته.

لن تغيب عنك نظرتها إليك..

كانت تدعوك أن تصحو من غفلتك وتعيش لحظتك التي أنت فيها.

وكانت تخنس في نظرتها إليك وتبتسم في دهاء يتبدى من وهج العين.. وتطوح بشالها.. فيلم شعرها، فينسلخ وجهك الذي تبدى.. لتعود – كما هي– سافرة ممعنة في سفورها.. فترتعب. ويبتعد عنك النوم ويلازمك الوجه.. بالجسد الملتبس.. وتفتقد راحة البال.. وتنقلب حالتك التي لا تخفي على زميلك..

ألا يكفيك وجهك الذي يتأبى عليك فتروح تنشغل بهذا الجسد الذي يتر شهوة، ويتشقق جلده عن متع مكبوتة، وعيناه عن رغبات مدمدمة.

هل تفعلها فتقع في المحظور، وتبوء بذنب يلازك، وخوف يطل عليك صباح مساء!

ثم تسقط إلى القاع.. وتنتهكك الألسنة.. ألا تخشى أن تعلق من رجيلك، أو تساق إلى قاض يجلدك!!.

ألا تعي أيها المرتعب الفخ الذي تتزلق إليه برغبتك التي تسرها وظللت تداهنها وتتعلل برفض كالقبول!

التمس الرضا.

ابحث عن القوة وابتهل.. أنت القــوي يــا الله.. وأنــت الــرحيم والرحمن. امنن على عبدك وقوة، وابعد عنه وساوس الشيطان، وهواجس النفس وتقلباتها.

***

أنج بعينيك عن الجسد.. أنت لم تجربه فابتعد.. قالها كحيكم.. كان قد كشف مخاوفه لمختار فحدق فيه طويلا حتى أقلقه ثم قال له.

لن أكرر ما قلته لك.. أنت تخوض تجربة فرضت عليك، فكن قويا، وقم بواجبك، وتسلح بقيمك.. ثم انسل حين تطمئن.

ودفعه بكفه في حدب دافئ كي يمضي إلى دراسة الثقيل، وأثار حميته بابتسامة اسعدته، همس وهو يخالس الحائط القائم بين الدارين.

– لا تسمح لامرأة – غير خطيبتك– أن تضع قــدمها في معبــدك، فتطرد أمتك.

لم يمهل النصيحة، ولم يغب عنه لحظة الموقف الذي يقف بين حدبه.. مراهقة تزوجت، وعجوز غلبها الزمن وتتمسك بذيوله..

كانت العجوز تحرص على إظهار انفعالها.. غلبــها فعجــزت عــن كبحه. كلما التفتت طلبت ابتسامتها مشجعة. يتجاهل غمــزة العــين، وحركة الحاجب، وتدرك ذلك فتتجاهله كأنها تباركه.

اقتحمت الغرفة فجأة فوجدته نائيا بنفسه في طرف المقعد حتى كـــاد يسقط، والبنت أمامه تتكئ على الطاولة.. رأسها بين يديها.. وصــــدرها بارز يكاد ينفلت.

ظلت البنت على حالها لم ترفع لها رأساً..

حين رأته يتداخل ضحكت عالياً.. ومالت، فلامست رأسه..

وضغطت بطنها صدره،.. ومدت يدها وفتحت «روشنة» صـــغيرة فانسكب الضوء من الحوش فأغرق وجه البنت فأطبقت عينيها.

اجهت إلى الراديو ففتحته، وأدارت مؤشره على أغنية بدويــــة لهـــا إيقاع ساكن ورنين – كالأنين– يخطف القلب.. التفتـــت بجســـدها في حركة مفاجئة وابتسمت وهي تردد النغم.. وخرجت.

تجرأ فصفق عاليا، فأزاحت وشاحها ولمته فبدت مساحة العـــري في ظهرها متسعة.

أحس بثقل يضغط عليه، وبقسوة في عينيها.. وإن جاءت كالملاعبة.. قلبت البنت أوراق الكتاب، وانحسر ذراعها فلمـــع.. لا أثـــر لمنابـــت الشعر.. ثمة علامة قديمة.. ليست كالوحمة، لكنها أثر قديم للسعة شديدة، لم تخف سمرتها ولم تحاول.. لما هدل الكم ازداد البياض وقوي لمعانه.

لم يسمع خطوها مع أن قراءة البنت خافتة تكاد لا تبين،.. فوجئ بها تشد فتحة الباب، ويطفر وجهها بالبشر، على يدها صينية الشاي، عليها

البراد، وكوبين مضلعين وعودين ناضجين من النعناع.. وحبات من اللوز.

وضعت الشاي فوق المنضدة وقرصتها في خدها وانسحبت مهرولة.

امرأة لا تيأس، اغتمنت فرصة سنحت، وأعدت طقسها وسعت للدخول فيه.

لاحظ «صابر» أن البنت بدأت تقبل على الدرس، وتعمل على إراحته باستيعابها، واختزلت الوقت للمخاتلة، أو المداعبة.

وشمل الوجه الأبيض سكون مجروح، وراحت عيناها تناجيانه..

وهو يخالس النظر في وقفتها أمام المرأة.. صاد رعشة في الأنف، وهزة في الشفة وانكماشة في جانبي الفم.

يغلق الكتاب، ويردد أبيات قصيدة تتلوها، ويقلب الصفحات، ثم يخرج منديله ويعصر وجهه ويجفف عرقه.

لا تحملها ساقاها، وتتحرك في خطوتها كأنما تنوي بحمل يثقلها، أو أن رعشة أصابتها فحجلت كالمخدرة.

اصطدمت بالشاي فانسكب. أصابته لسعة قوية.. وبلل الشاي ثوبه.. أمسكت بمنشفة وراحت تضغط على البلولة علها تمتصها..

واندهشت أن تصدر منه صيحة مفاجئة تنبئ عن ذعره وتكشف ضعفه.

جاءت العجوز مهرولة.. تستفسر عن سر الصيحة، وتطمئن على الحال. وصلت مسرعة فلم تهتم بنفسها، ولم تستر جسمها جيداً فلاح الترهل في أجزائه، وكشف عن غضون واضحة..

فوجئ بالشال ملموما على الكتف، والرأس حاسرة، والشعر المحني لا يخفي منابت الشعر البيضاء.

رأتها منحنية عليه.. أثارتها انحناءة الجسد وتدويرته، شدتها وتقدمت.. واحتد صوتها وهي تطالبها أن تأتي بصحن به ماء، وشر شف صغير.. ومالت عليه.. غمست طرف الشرشف وعصرته، وراحت تدعك مساحة الثوب التي طالها الشاي.. كاد يغمى عليه وهي تضغط بجسدها كأنها تتكئ وتعتدل ثم تمرر يدها في حنو.. وتمسح الثوب.

همست ويدها لا تكف:

– طيرت صواب البنت..

اعتدلت واقتربت من البنت التي بدت غضبي لقربها الواضح منه. لا تنخدع بقولها، ولا يخيل عليها ما تفعله أو تهمس به، لا يفوتها مسار عينيها، ولا الوهج الذي انطفأ.. أية قوة تبث الحياة في الرماد! تميل عليه كأنها تريد أن تأخذه، وتدعي خلقا غائبا.. ثم تستجديها وصالا خاطفاً.

يرتجف جسد البنت، وتحتد عيناها.. والعجوز لا تزال قريبة منه:

- تجن حين يغلبها العطش..

أشار صامتا إلى الماء، واتجه وجهه نحو البنت فامتعضت، وأدارت وجهها.

لزم الصمت، وضحكت العجوز وهي تدير عينيها بينهما:

- أنت تبعد كثيرا.

وأشارت إلى البنت، والمنضدة، وطرف المقعد:

- كيف تفهم البنت درسها؟

لم يفهم كثيراً، فمط شفتيه وصمت.. ومسح الثوب بكفه. واعتدل:

- الدرس.

علا صوتها قليلاً.. فاتجهت البنت نحوها وانتظرت أن تجلس بجوارها..

ابتسمت وهفت بشالها فازدادت مساحة الصدر عارياً.. ملابس البنت التي جاءت بها مسرعة.. لا تحجب الكثير فأحنى رأسه..

- عينها في الكتاب.

و.. عينك عليها.

وراحت تزيح المنضدة، وتقربها منهما..

حركت المقعد الذي جلس عليه حتى كاد يلاصق المقعـد الآخـر.. وقالت بعد أن مهدت جلسة المدارسة:

– كيف تسمع منك وأنت بعيد؟

تجاسر ومد عينيه في إمعان.. ثم صمت.. شعر بحرج شديد، لم يحدث له من قبل.

بعد أن انتهت كوّمت الصينية والبراد والأكواب ثم همست..

– كان يجب أن نغسل الثوب.

وتخانفت وهي تشيح بوجهها وتداري بطرف شالها نصف الوجه..

–...و.. أغراضك.

ثم تنهدت في عمق وحدة كأنها حبست أنفاسها زمناً..

ربتت على كتف البنت.. وضغطت بإصبعها فساخ قليلاً فتوجعت.. غمزت بعينيها.. تشجعها.. وخرجت..

كانت البنت تنظر إلى العجوز بغيظ، تمنت لو تركت لهـا تصـحيح خطئها.. لكنها تهتبل الفرصة وتخطفها، وظلت تحجج.. وتحتك به.. وهي التي تلس معه وتحضنه بعينيها، عجزت عن القرب منه، وتنظيف ثوبه.

كلما رأها تلامسه تشتعل ويفور داخلها باللهب، وتكـــاد تزيحهـــا وترمي بها خارج الحجرة.

تنفست عميقا وتقدمت نحوه، أبدت أسفها، واقتربت .. وتعمـــدت قربا لصيقا، فمد يده وحجزها.. غضبت، وخطفت الكتـــاب ومزقتـــه ورمت به خارج الحجرة وصاحت.

– إيش تظن نفسك!

علا صوته في خنة باكية وجسدها ينتقض.

– ما تزيد على «بو سعد» الكلاف..

رأى من الحكمة أن يكتم الغضب ويلزم الصمت.. حتى يمر الوقـــت ثم يتخذ القرار.

أخبرت العجوز .. الشيخ بأن زوجته المجنونة ضاقت بمدرسها حـــين أنبها على التقصير في الواجب، فرمت الشاي في وجهه وبللت ثوبه..

حدق الشيخ في امرأة.. رأى سفور الوجه، وانحسار فتحة الصـــدر فقال محتداً.

– وذهبت إليهما!

– وهدأت خاطره.

مسح لحيته، وفرد غترته.

- ذهبت هكذا!.

وأشار إلى الوجه، والصدر، والرأس.

- ألا تلوم زوجتك الطائشة..

- صغيرة وستتعلم.

وصمت قليلا ثم عاود الحديث وتساءل..

- تبسطت معه.. وتحدثت، وهدأت الخاطر..

ووجهك سافر، ورأسك عاربة.

- إنه يعمل لدينا.

اشتد صوته:

- إنه يعمل لدى الحكومة.

أشاحت بوجهها، ورمت شالها حتى كاد يصله.:

- من يعمل لدى الحكومة، كأنه يعمل لدينا.

- كنت تتحجبين. الأمر سهل.

فردت جسدها على مقعد مستطيل، ونكتت شعرها المحني:

- هل أتحجب عن السقاء.. وراعي الغنم.

ظل ينظر إليها مغيظاً..

قالت في نبرة واطئة وباردة:

– هو مثله.

***

لحقته الإهانة، ووصله المعني.. لن يصل إلى مترله الكــلاف.. ولــن يتسامح مع نفسه التي كلفته انزواء أساء إليه.. ولن يتخاذل..

ما الذي يجبره على فعل شيء لا يرضاه! أهو الخوف من إنهاء عقده! أو هو الذعر الذي يفقده الصمود، واتخاذ رأي ينبــع منــه ولا يفــرض عليه!!

إن بقي على حاله فسيكون هدفا سهلاً.. وسيسقط.. ثم يرمــي بــه بعيدا كما تلفظ النواة من فم جائع.

لن يرفع الرأس إلا إذا أمسك مدية حادة ويظل يدمي بهــا نفســه ويسلخ جلده المرتعب، ويرمي به بعيدا.. كي ينمو جلدا جديداً، يشــتد بضوء الشمس وقوة المراس.

تمعن في إيلامه.. وتجابهة كالفرس الحرون، وتتيه بجســدها وتــروح تستنفر ضعفه لتأسره وتتعمد أن تحرقه.. وهو يتأبي.. لم يــدرك إن كــان التأبي جاء عن جبن أو قيمة.. اختلط الأمر وانبهم..

أحس بالإهانة.. وشعر بوحدة.. وبعزلة.. كأنها اليتم.

أصبح الآن.. في عينيها لا يزيد عن كلاف.. يعتني بالبهائم. لماذا سمح لنفسه أن يقبل ذلك ولو كان فيه النبذ والأبعاد!!.

أهو يختلف كثيرا عن زوجة عبد العزيز.. في ضعفها ومهانتها..

***

أيها المرتعد لا تعطي الدنية وابتعد.

ابتعد أيها المذعور، انضض عنك ثوبك المبتل بضـــعفك وجبنـــك، وامض تجاه الشمس، واصطد شعاعها واصطل به.. علك تستعيد نفسك.

تترنح مشاعرك على كثبان الرمل الهلالية، وتسير بلا وعي، تتجاسر فتأخذك قدماك إلى الحواف والفجوات والأكمنة، تشتبك بجلبابك إبـــر صبارية، وأشواك نباتات برية.

تميل برأسك إلى البعيد.. لا ترى أفقاً.

سقطت السماء وقبضت على الأفق، وأغطشت التماعات السحب الرمادية.

فجأة تراه أمامك يتبدى..

كان الوجه الأبيض الجميل لأبيك..

وعمامته تزين رأسه.

ينظر إليك ويبتسم، تأخذك أسنانه البيضاء وهي تضوى.. وعينـــاه الحانيتان.. الحادبتان عليك.. كان يستند على سور الجامع..

يميل ويدخل الجورب في قدمه..

يطير قلبك إليه...

يراك ويبتسم..

يلفه صمت طويل.. فلا ينطق. لا يحادثك ولا يعترضك، ولا ينهض فيتركك.. ظل ينظر إليك ويبتسم..

لم يكن في نيتك أن تصلي..

لكنك رأيته.. فانفتحت السماء ولاح شعاع يضوي.. خف جرمك وكادت الريح تتلاعب بك...

كنت تريد أن تقول له أنك أديت عمرة له، وأنك رأيتـــه يطـــوف معك.. يضع يده على الحجر الأسود ويدعو لك.. يتخطى حجر إسماعيل ويسبقك..

ما الذي جاء به فتلبسك.. وعلا فوقك، تفر الدمعة من عينيـــك.. والريح تسفي الرمال وتؤذيك..

تخرج من حالتك التي سكنت فيها، فبدوت كالحالم اليقظ.. وأنت ترى الوده مرسوما على الأفق، يلقي بضيه فتتلون نتف السحب بضوء أشهب كاللبن..

***

لم يأبه بمخاطر الصحراء، أو وحشة الخلاء، وأمعن في المسير.. تعثرت قدماه في الصخور، وانكفأ في نقرات الرمال.. يدور حول التلال وخلفها، يصعد ويسقط.. والمشهد عالق به، لا يفلته.. والهوان يحيطه ويعصره.. يهطل على جسده قطر دافئ كأنه صهد البدن.

رفع رأسه فتجلى الوجه يسد الأفق، تجور عليه البسمة ونغزة الخد كخوخة مدممة.. والشعر من ورائه ينفلت ويتطاير..

يسعى إليه راكضا، مهرولاً، ورامحاً.. ويقذف بجسده.. إلى أين يأخذه الوجه، وينأي به؟ أياخذه إلى بئر معطلة أو إلى هوة سحيقة تقبع فيها امرأة عجوز ولسانه يرتل مزامير الهوى.

والمساحة بينهما تتسع، والملامح تكاد تنبهم، والإصبع المفرود على الفم صارم كأنه سكين.. التاع قلبه خشية أن ينغرز.. فيغلق الشفة.. ويرسل الدماء.

عجز عن الوقوف..

وساءت حالته..

لماذا لا يرسل الوجه شعره ضفيرة ممن نور يتسلق بها إليه.. علـــها- هذه الحبيبة النائبة.. المتبدية - تأخذه وتطويه وتبعده عن غربـــة قاتلـــة، ونفوس مخاتلة.

يعجز بصره عن النظر.. أيشكو غربته، وسقوطه، وعجزه عـــن أداء مطلبه؟.. أيسر إليه بعذابات الرحلة ومسراتها الشحيحة.. يجـــر قدميـــه الهوينى.. كأن الصحراء تصفده برملها وهو يخلع قدميه خلعاً... يستدير الفراغ، والخلاء، والوحشة، ويغمض عينيه على وجـــه الأب المبتســـم، ويخلع قدميه في جهد ومثابرة من قبضة الرمال الحاكمة..

وضيّ النور الذي يتراسل من الوجه.. يترقرق على شـــريط الأفـــق الحاد.. ويخطف في حركة مباغتة روحه التي ترقرقت هوى وهـــو يـــرى وجهه ينفلق نصفين كما يفعل القمر.

صدر للمؤلف

– الخروج إلى النبع ، رواية ، مركز الحضارة للنشر ، القاهرة ، ط2.
– السيد الذي رحل ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، مكتبة الأسرة.
– الضوء والظلال ، رواية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2 ، الكتاب الفضي.
– حرث الأحلام ،رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، أعمال كاملة.
– الطرف الآخر من البيت ، رواية ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط2 ، أعمال كاملة.
– امرأة عابرة ، رواية، دار الإبداع ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط2.
– رأيتك في المنام ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– من يقتل الحب ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– صدأ القلوب ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– البنات والقمر، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– ذات الشعر المنسدل ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– قصاقيص الهوى، قصص قصيرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
– صانع البهجة ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– ألوان الطيف ، قصص قصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
– المدار ، مسرحية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الفيل الصغير، أطفال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– أنا وكلبي ، أطفال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– أنا لولو ، أطفال ، كتاب قطر الندى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة
– الأعمال الكاملة ، مجلد 1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الأعمال كاملة ، مجلد 2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– الأعمال الكاملة ، مجلد 3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
– مختارات روائية ، مجلد 4 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

دراسات أدبية ونقدية:

- نظرات في قصص القرآن ، 3 أجزاء ، رابطة الأدب الإسلامي.
- من جماليات التصوير في القرآن ،جزءان ، رابطة الأدب الإسلامي.
- صورة المرأة في قصص القرآن ، مكتبة الحلبي.
- المرأة... العفة والرغبة ، كتاب الجمهورية.
- قطوف دانية ، كتاب الجمهورية.
- القصة في القرآن ، الهيئة العامة لقصور الثقافة
- القصة في القرآن... مقاصد الدين وقيم الفن ، دار قباء.
- من جماليات التصوير في القرآن ، ط2 ، سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- قراءة في القصة القصيرة ، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- محمود البدوي عاشق القصة ، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الفن والبساطة في أدب ثروت أباظة ، دار الشعب ، القاهرة
- الرؤى والأحلام.. قراءة في الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الذات والموضوع .. قراءة في القصة القصيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- السرد في مواجهة الواقع ، مركز الحضارة للنشر، القاهرة
- ينابيع الواقع... قراءة في القصة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب